الباطن

صافي صافي

الرعاة

الباطن

رواية

صافي صافي

السقيفة

أصحو في الليل، والكل نيام، صوت طرقات على الخشب، صوت أحدهم يحمل بلطة، شرخة، ويقطع بها الحطب، الصوت يعلو حيناً ويخفت حيناً آخر، يقترب مرات، ويبتعد أخرى. الصوت منتظم، الفواصل بين الضربات قليلة، أحاول أن أنام دون فائدة. ما الذي يحدث؟ هل أنا فقط الذي أسمع هذه الأصوات؟ أدقق في خشب السقف، ربما قصده أحد، فتتقطع الأخشاب، وينهار السقف الطيني. هي الغرفة الوحيدة التي ظلت دون ألواح الزينكو، هي غرفة أبي وأمي السابقة، بل هي الغرفة السابقة للعائلة كلها منذ النكبة. الأصوات ما زالت بالإيقاع نفسه. ألتفت نحو أخواتي وإخواني، فأجدهم مستغرقين في النوم، ألتفت نحو باب الغرفة الشرقي، فأجده مغلقاً، أشعر أن لا أحد هنا سواي. لماذا أسمعه أنا؟ أحاول النوم ولا أنام، يطول الحال أكثر من ساعة، لا نوم. هل أذهب إلى الغرفة المجاورة، غرفة والدي، وأوقظهما، ليسمعا ما أسمع؟ لا، ربما سيتهمانني بالخوف، أخشى أن أتهم بالخوف، أخشى أن أنكشف أمام الآخرين بما في ذلك والدي واخواني. أغطي رأسي بطرف اللحاف لأمنع الصوت من الوصول إلى أذني، أسد منافذهما، أشد اللحاف حتى تتكشف قدماي، والصوت لا يمنعه حاجز. لا أعرف ما الذي يحدث، أحاول أن أجد تفسيراً ولا تفسير.

أدقق في موقع الصوت من مكان نومي، أجده قريباً حيناً وبعيداً حيناً آخر. أسمعه من الجهة الشمالية، ومن الغرب وكل الاتجاهات. إنه يحاصرني. أحاول أن أستمع إلى لهاث أحد ليسليني وهو يهوي على الخشب، ولا لهاث. أستمع إلى حديث ربما يجري بين أناس يضربون الخشب، ولا حديث. ربما يكون أبو سعدات، هذا الجار الغامض، الذي يتنقل ما بين الحدود، ويأتي بالجمال والأبقار، ينام معظم النهار ويعمل ليلاً. سأسأله في الصباح إن وجدته. لا أعرف كم بقيت على هذا الحال، دقائق، ساعات، وأنام وأصحو على دقات وحركات متسقة ومتوازنة تبقيني يقظاً، أبحث عن لعاب أبلل به فمي، فلا أجده.

حجارة السقيفة تهتز مع كل ضربة اسمع صوتها، أراها ولا أراها، تحيط بي من كل جانب، وتهتز الأرض من تحتي، فلا يفصلني عنها سوى فراش لا يتجاوز سمكه بضعة سنتمترات، ويهتز الباب الخشبي والطاقة الخشبية التي تفصلني عن العالم الخارجي. كل شيء يهتز من حولي، وتهتز أعضائي الداخلية، خاصة قلبي الذي يصل حد الارتعاش. نبضاته تزداد، وحلقي يجف، وأحاول إغلاق عيني دون فائدة. متى أنام يا الله؟ كنت أدخل الغرفة نهاراً لأسمع الضربات نفسها، فلا أجدها. تحدث فقط في الليل، ولا أفشي سري لأحد، أحتفظ به، وأضيفه لأسرار أخرى كثيرة.

هل هناك من يقصدني أنا بالذات؟ هل هو فعل انس أم جن؟ هل أنا مسكون بالجن؟ هل أحتاج لعلاج عند أحد الشيوخ؟ تمنيت أن يكون فعل انس وأحتمله، لكن أن يكون جنياً وأن يعالجني الشيخ عبده فتلك مصيبة. ما زلت أذكره، وأنا في البرية قرب بيارته قرب نبع الماء المسمى باسمه، وهو يعالج زوجته الضريرة، يقطع غصناً من شجر الرمان، ويشذبه. يُجلس زوجته بين الأشجار، ويقرأ بعض القرآن، ويتمتم بكلمات لا أفهمها، ويطلب من الجن أن يخرج، ولا يخرج، لم أره يخرج، ولم يره هو، فيضرب جسد زوجته بكل ما أوتي من قوة، وهي تصرخ، وهو ينادي الجن: أصرخ كما تشاء، اخرج من جسد زوجتي، وإلا ضربتك أكثر. ويظل يقوم بفعلته ساعة العصر، ليكرر هذه الطقوس في أيام تالية.

حاولت في ليلة لاحقة أن أغلق أذني، غطيت جسدي كله، وغطيت أذني، لكني صحوت على الدقات نفسها، فأغلقتها ثانية. الأصوات تأتي من داخلي، أرتجف، وأرتجف، وأتقلب في الفراش، ولا أدري كيف نمت. حاكيت نفسي: يجب أن أخرج الجن من داخلي، ولن أفعل مثلما فعل الشيخ، فلن أضرب نفسي، ولن أحضر مطرق الرمان، سأشتغل على نفسي لأطرده حتى لو كلفني ذلك الخروج من الغرفة في عز الليل. سيسمونني مجنوناً؟ فليكن، سأحارب الذي في داخلي بكل ما أستطيع، وبالوسائل التي أستطيع. سأصلي، وسأقرأ القرآن، وسأحفظه، وسأستعذ بالله من الشيطان الرجيم. قالت لي أمي مرة: اذكر الله في كل وقت. سألتها: حتى عندما أذهب لقضاء حاجتي؟ أجابت: في كل وقت، استعذ بالله من الشيطان، واطلب معونة الله، وستعيش مرتاح البال.

أنا لم أبلغ الحلم بعد، فتى لم يتجاوز العاشرة من عمره، فأي جنية تريدني؟ هل هي جنية مؤمنة أم كافرة؟ هل هو جني ذكر أم أنثى؟ قرأت على نفسي بعض آيات القرآن خاصة المعوذتين، وسورة ياسين التي أحبها، ولم أخرج من حالتي. ربما تخطط هذه الجنية لصيدي، فماذا تريد؟ هل أنا صيد رخيص؟ ألا تكفي صلاتي وصيامي منذ ثلاث سنوات أو أربع؟ ألا تكفي طاعتي لوالدي وأهلي؟ ألا يكفي أني أحاول أن لا أكذب ولا أسرق ولم أقتل؟ ماذا أفعل بعد؟

ربما يكون السبب عدم رضاي عن السكن في هذه السقيفة، ربما لأني أطلق لفكري العنان رغم أني لا أطرح أسئلتي أمام الناس. أو لأني أبحث عن الله في كل حين، فأراه عند أذان العصر، وحين تحجب بعض الشمس غرباً، فيتحول الضوء من الأزرق إلى الأحمر. أتمعن في الغروب، وأناجي الشمس أن تتريث، فلا يأتي الظلام وأنام في تلك السقيفة. ربما وأنا أرى الخطوط الحمراء الأفقية وهي تذوب قليلاً قليلاً. أبحث عن الذي خلقني، فأتمثله كما يقول الشيخ عبده في غيمة تتشكل في الصباح، غيمة ضخمة، بيضاء اللون، أبحث عن شيء يشبهنا، فلا أستطيع تمييز أطرافه، يتحرك ببهاء، ويتمدد، ثم يغيب كأني لم أكن أراه، ليراه غيري ربما بشكل آخر. أدقق في غيمة أخرى عظيمة، تنقسم، وتتجمع، وتتآلف، فأرى فيها كل الكائنات الحية، فتلك مثل الجمل، وتلك مثل الفرس، وهذه مثل الغنمة الشامية، وتلك مثل الحمار، وتلك مثل الكلب، وتلك مثل الجبل، وهذه مثل النار، وتلك رجل وامرأة يتعانقان، وأرى أشكالاً لكائنات لا أعرفها. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم على هذه الأفكار. رأيت كل أشكال الحياة والموت في الغيوم، ولا أملُّ من متابعتها، ولا أملُّ من قراءتها. أنا لا أحب السقيفة ولا السكن فيها، ولا النوم داخلها. ماذا أفعل يا رب؟

الله يحاسبني ليس فقط على سلوكي وإنما أيضاً على دواخلي، فلتتقبلني يا الله، أنت منحتني هذا العقل الذي يسأل، والسؤال ليس محرماً، لو لم تعطني هذه الدماغ لما فكرت هكذا. لم أستطع أن أمنع نفسي من ذلك، اللهم إنك عفو كريم، تحب العفو، فأعف عني. اللهم جازني خيراً على هذه الأفكار التي تأتيني، فلولا قدرتك، لما استطعت ذلك. اللهم إني أتفكر في خلق السموات والأرض وكل ما حولي. أليس هذا طلبك؟ إني أنفذه.

هذه السقيفة تتحول في نهارات الصيف إلى جهنم، فلا يدخلها الهواء رغم شحه سوى من طاقة صغيرة لا تتسع لجسدي حتى لو كوّمت أطرافي، ومن باب يفتح شرقاً. هي مجرد حجارة جرى جمعها من الجبل، مغطاة بالطين المخلوط بالقصول من بقايا حصاد القمح، أما سقفها، فهو ألواح زينكو ترتكز على أخشاب بطول الغرفة أو عرضها.

في الصيف، وقت الظهر وحتى ساعات المساء، تنتقم الشمس من جسدي، والجلوس في الغرفة هو أهون من الجلوس تحتها مباشرة في قاع الدار. أحاول أن أرخي جسدي على المصطبة التي تبعث بعض البرودة، وأطل على السقف حيث تبان أشعة الشمس من بين الثقوب الصغيرة والشقوق بين الألواح وفيها. أرى الشمس تتوعدني بالحريق، ترسل الأشعة كسوط يبحث عني. أجد بقعة بعيدة عن مسارب الأشعة، وأركن فيها، فإذا بالشمس تكشف موقعي، وتعاقبني. ماذا أفعل بك أيتها الشمس؟ أتامل شروقك وغروبك، وأناجيك، فهل تريدين أن أصارعك وأنت بكامل قواك وحيويتك؟ لست أهلاً لذلك. هل تريدين أن أحتمل عذابك وقت "الظهر النقطة" كما يقول أقاربي؟ أليس للفرد مواقيت، وللشمس مواقيت، وللعبادة مواقيت، وللراحة مواقيت؟ فهل تسمحين لي بأن ارتاح قليلاً؟ اعترف لك بأنك شمسي، وعالمي، وعالم كل الأحياء على هذه الأرض، سامحيني إن اختبأت منك بضع ساعات، فحتى أناجيك وأخلص لك، احتاج بعض الوقت للراحة. سأتأملك قبل الغروب، وأتغزل بجمالك، وطلعتك البهية، وسأذكرك دائماً بالخير يا شمسي.

أرى كبار السن، وهم يحملون حصيراً، ويلطون تحت شجرة، وأنت تطلين عليهم من بين أوراقها. سأفعل ذلك عندما أكبر، فالشجر القريب يحتله الرجال والنساء، وأخشى أن أحرج نفسي والآخرين. قالت لي أمي: إذا رأيت رجلاً وزوجته يجلسان أو ينامان معاً، فلا تنظر نحوهما، عيب. وكنت كلما وجدت مثل هذه الحالة أغمض عيني تماماً، وأشيح بوجهي إلى جهة أخرى، ولا أنكر أني رأيت أشياء وتعلمت أشياء لم أكن أعرفها. إغماض العينين لن يغير مما يحدث في الواقع، لا شيء سيختفي، لأنني لا أريد أن أراه، الأحداث لن تتوقف، وسأسمح لدماغي أن يصطنع أحداثاً أكبر وأعظم، سأصطنع حالات شاعرية يرتعش من خلالها جسدي، وكثيراً ما حدث، أرتعش عندما أرى الماء ينهمر من شلال صغير، فأرى قوة الطبيعة، وأرتعش حين يحنو الحمار على صغيره، وأرتعش حين أسمع كلاماً جميلاً، وأرتعش حين يتلاصق رجل وإمرأة، وأرى الله في كل ما أستطيع قوله ولا أستطيع.

دعيني يا شمس أعترف لك، بأني وطوال مكوثي في الغرفة، لا أفكر إلا بك أنت، فتزيدين هيبة، وأعرف أنك في السماء السابعة أو التي بعدها حيث النار وما أدراك ما النار. أنت تسيطرين عليّ، فلا أنام، وإذا فعلت أحلم بك وبسطوتك، وببهائك، وبقدرتك. ألا يكفي بأني أذكرك طوال فصل كامل، أنام الليل حين تغيبين، وأصحو حين تأتين، أتعترفين بذلك؟ ألا أتحمل حرارتك؟ وفي الشتاء حيث البرد القارص، أبحث عنك فلا أجدك. تغيبين عدة أشهر، فلا أراك. أناجيك، أناديك، فلا أرى سوى أثرك نهاراً. وحين تظهرين بعض الوقت في الربيع، ويحجب أشعتك عني أحدهم، أنشد: اللي في شمسي لمسي، لا يقشع ولا يمشي. الله يا الله: احفظ شمسي، واحفظ حياتي وأهلي ومستقبلي، وألطف بي.

السقيفة في الشتاء عذاب، هي سجن لا خيار غيره. أصل البيت وقت الظهيرة، أراجع بعض دروسي، وألحق بالأغنام. تتضاعف المصيبة ليلاً، حين يشتد المطر، وأعد حبات المطر وهي تطرق ألواح الزينكو، وحين تتساقط حبات البرد تصبح الغرفة طبلاً كبيراً، فلا نوم ولا دفء. الطرقات تصيب طبلتي أذني، وتهددني هي الأخرى بالمزيد. أريدها أن تمطر وأنا خارج الغرفة، لكن أين سأكون؟ سأعود إليها، إنها سكني. احتمل ذلك، وأدعو الله أن تمطر بهدوء، دون ضوضاء، وأن تمتص الأرض نصيبها، وأن تظل عين الماء بمنسوبها لنشرب منه صيفاً.

ألواح الزينكو في الشتاء هي نفسها في الصيف، فالماء يبحث عن مسرب له، ويجده في الثقوب وفي الشقوق، فيتسرب وينساب نحو الأرض، وتأتي أمي لتنقلنا من هذه الجهة إلى تلك، وتضع طنجرة أو أي إناء لتسقط فيه حبات المطر، نحشر أحياناً في زاوية، ويضطر أبي أن يلبس كيس خيش على شكل طاقية يسميه "زعموطاً"، ويحاول معالجة الأمر من فوق.

حين يشتد المطر، ويفجر عينيه، ويحاول الانتقام منا، تزداد ضرباته على الزينكو، تساعده الرياح التي لا تمل من محاولة اقتلاع الألواح، وقلبها، وحملها بعيداً، فنصبح مكشوفين للغيوم تماماً، تنطلق إلى السماء، ونلحق بها مثل الأرواح، تبقى البيوت بلا ساكنيها. أخشى أن أبقى مكشوفاً، كما أخشى أن أموت، وتتحول الغرفة إلى بركة ماء، ويختلط الطين بالملابس والفراش، ونرفع أيدينا إلى السماء كلما شاهدنا برقاً أو سمعنا رعداً: يا رب البيت، راعي البيت، احم البيت، وأهل البيت، ومن فيه. كنا نرفع أصواتنا في أحيان كثيرة لتخترق الأصوات التي حولنا، ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله وهذا المطر، وهذه الرياح.

يشتد المطر، فيذيب الطين من حول الحجارة، لكن والديّ كانا يتابعان ذلك، ويحضران الطين والقصول، لمعالجة الأمر قبل انكشافنا أمام المطر والريح، وندعو: يا ريح كوني برداً وسلاماً علينا، يا برد كن دفئاً وحضناً لنا وفينا وعلينا.

يا الله، احمنا من البرد والصقيع، والطف بالخير الذي ترسله لنا شتاء، وهدئ من سرعة الرياح، فلا موئل لنا إلا هذه السقيفة. اللهم ارحمنا برحمتك، واجعلنا من القوم الصابرين. إننا نصبر على هذا الحال صيفاً وشتاء، وما شكوانا إلا اعتراف بك وبقدرتك. اللهم آمين.

العريشة

ما أحلى النوم ضحى أو عصراً في العريشة، قبل أن تلقي الشمس بكامل ثقلها نحوي وبعده. لكن عند الظهر تصبح الأمور صعبة. والأكثر صعوبة هو النوم ليلاً، فرغم ما تبديه الأمور ظاهرياً، فإنني أظل مبحلقاً في أغصان "حنون الساعة"، فلا أستطيع أن أفرق بين كونها أغصاناً، أو ثماراً، أو أفاعي وفئراناً، تلعب لعبتها، وتتم المطاردة. لا أستطيع التفريق بين هبوب نسيم ما يحرك الأوراق والأغصان الطرية، أو هروب فأر ومطاردة أفعى، أو ربما سحلية فقدت طريقها، أو أبو بريص يبحث عن رطوبة، أو أي كائن آخر، وماذا لو كانت هذه الكائنات ليست كائنات بحد ذاتها، بل هي جن جاءتني على هذه الطبيعة؟ إلى متى سأظل أفكر بهذه الطريقة؟

في صيف، سمعت خشخشة في العريشة، وبعد لحظات إذا بفأر يقفز، تلحق به أفعى، ويتكومان على الحصير. تيبست، رغم أنها لم تؤذني، ولم تقترب مني، فلم أكن أنا الطريد ولا الطارد، انزويت جانباً، وبقيت أراقب اللعبة في ساحة الدار لتنتقل إلى خارجها.

أخشى العريشة، حين يجتمع أصدقاء والدي، ويستمعون إلى المذياع وهو يقول أشياء لا تنتهي، مثل الدجاجة قبل أن تبيض، مثل الكروكة، فيترك الأصدقاء والدي دون سلام ولا كلام، فيتجول أبي في الساحة، وهو يحوقل. وأخشاها، حين يجتمع كبار السن في بيتنا، ويحكون، ويحاولون تحليل الأمور، فيظهر لهم من يتجسس عليهم، وينقل أخبارهم إلى الحكومة. وأخشاها، حين تتحول بعض ساعات الليل إلى جلسات حميمة، فلا أستطيع الخروج من الغرفة، ولا أستطيع الدخول إلى البيت، حتى ينتهي كل شيء. وأخشاها في الصيف، أما في الشتاء، فهي مجرد مكان نمر بجانبه، نحييه، لنلتقي صيفاً.

ساحة الدار

ساحة الدار هي ممر بين الغرف، التي نسميها بيوتاً، فهذا بيتنا على اليسار وأنا خارج، وهذا بيت أخي المتزوج على يمينه، وهذه العريشة أمامي، وعلى أقصى اليمين ما يجمع بين المطبخ والحمام، فإذا أرادت أمي أن تطبخ ببعض الخصوصية عن الضيوف، فيمكن لها أن تستخدم هذه الغرفة، وإذا لم يكن من الممكن أن تستخدم الغرف الأخرى للاستحمام، فيمكن استخدام هذه.

هذه الغرفة أيضاً هي جزء من ساحة الدار، وتشكل مخرجه المائي، فكل المياه التي تتجمع في الساحة، تجد في مصرفه مخرجاً يؤدي إلى الطريق الترابية بين البيوت المماثلة، فبيتنا وبيوت أعمامي ترتكي ظهراً لظهر، كل منها يفتح في جهة.

لا يمكن استخدام هذه الغرفة لأي غرض آخر، سوى تخزين بعض الأغراض الزائدة، لكنها يمكن أن تستخدم مرحاضاً في الشتاء، ويصبح المصرف مخرجاً طبيعياً يصب في الطرقات وفي الحقول المجاورة. المصرف كبير نوعاً ما، حتى أن بإمكان أي متلصص أن يرى بعض من في الداخل، فهو مجرد مكان فارغ لحجر في الحائط.

صوت صراخ لأختي، تفر هاربة إلى ساحة الدار، تلملم ثيابها، ووجهها مصفر. هناك أفعى. صرخت.

كانت مرقطة، عريضة طويلة، لكنها شبه مستسلمة، لا تقوى على الحركة، تبحث عن ملجأ، عن مخبأ من هذا المطر الشديد، ووجدت مكاناً تستريح فيه. رأيتها، ولاحظت أنها تحاول التحدث معي: امهلوني قليلاً، حتى ينقشع المطر، وسأذهب. لكن عصا أبي قتلتها، لتلقى في الحاكورة المجاورة.

لم أفرح كثيراً لمقتل الأفعى، فتداول الجيران أن أمثالها تأتي لتفتش عن قاتلها، وتنتقم منه. تشم رائحته، وتتعقبه، وتقذف سمها في عروقه. خشيت على نفسي وخشيت على أبي، وبت أتجول في الساحة أبحث عن أثر لها. ربما تأتي في الليل، فلا أراها، وإذا ما خبطت عليها، تقتلني. صرت أكثر حذراً في بيتنا، وأكثر يقظة في الحواكير المجاورة.

هذه هي الساحة نفسها، التي أحمل ذكرى سيئة فيها، فحين كانت أمي تحضّر الأمور لزيارة خالي، تطبخ في الساحة، وتنظف الساحة بالماء، وتبدل الماء في برميل المغسلة المعلقة على الحائط الداخلي، وأنا ألبس ما نظف من الثياب وجدّ. كنت أراها فرحة، وكنت فرحاً لفرحها، وأبي يجلس في العريشة، يراقب الأمور عن كثب، وأنا أدور حولها، أتوق لأرى هذا الخال الذي أذكر بعض ملامحه منذ سنتين. كنت قريباً لأمي لدرجة أني صرت جزءاً منها، وكنت أود لو أساعدها في هذا التحضير.

كان الماء يغلي على بابور الكاز، وأرادت أن تصبه في البرميل، وكنت ملتصقاً بها، أبعدت الغطاء قليلاً، أتاحت مساحة مناسبة في أعلاه، وبدأت بصب الماء، فإذا بالغطاء ينزلق ويسد الباب، وأنا قربها. انحرف الماء الذي يغلي، ووجد طريقاً خارجه، لأكون أنا الهدف، فينصب الماء الحار على كتفي وظهري وبطني.

أصرخ بأعلى صوتي، وتصرخ أمي تلوم نفسها، وينهض أبي صارخاً: كل هذا من أجل أخيك. أتريدين قتل الولد؟

صرخت كثيراً، ولم أعد أطيق لا لمس الحرق ولا فعل شيء. لم أقو على الجلوس ولا الوقوف. جاءت بالماء البارد، وصبته على جسدي، فتبللت ملابسي الجديدة والنظيفة. أسرع أبي وأحضر لوح صبر، وراح يهرسه بالحجارة، ودهنت أمي الأماكن التي باتت حمراء. المساحة واسعة، والألم ما زال موجعاً، ولا بد من التعايش معه.

بقيت على هذا الحال بضعة أيام حتى بدأ الجلد باستبدال قشرته، أخفيت ذلك عن أصحابي، وبت محل اهتمام أهلي وخالي الضيف.

باطن الحية

الفضاء واسع، يطوّق الطبيعة من حولي، يغلفها، يعلو فوقها. كم من جيل عاش على هذه الأرض، وكم هي الأجيال التي ستعيش بعدنا؟ هل هي الحياة التي أعرفها الآن أم كانت مختلفة كثيراً؟ ما الذي اختلف؟ وهل اللاحقون سيعيشون كما نعيش نحن الآن؟ هل نحن نعيش في الحياة الدنيا؟ هل يوجد أدنى منها؟ هل تحس الحيوانات كما نحس نحن؟ بماذا تختلف عني؟ أحب هذه الحياة بين هذه الأودية والجبال والتلال وفوقها. لو صرخت لا أسمع إلا صوتي الذي يتطاير مع الهواء الملتف حول الجبال، ماذا ينفع صراخي؟ ما هي المعرفة التي أعرفها؟ وهل هذه الحياة بين الطبيعة ستزيد من معرفتي؟ أم أن المعرفة هي فقط في المدرسة؟ أحقاً ما أقوله لنفسي؟ هل أنا بهذا المستوى من المعرفة؟ هل أنا أنا؟ من أنا؟

حاولت أن أغني، رفعت صوتي قليلاً، كان أجّش، سرت في جسدي قشعريرة، طربت لها، تحول الصوت إلى خشونة وبحة، فغنيت أكثر وسالت دموعي، طربت له ثانية، أحسست بما في داخلي من ألم وفرح وحياة، لم يقاطعني أحد، لم يوقظني أحد. شعرت بقيمة الغناء الهادئ، إنه يشبه الطبيعة من حولي، مثله مثل حفيف أوراق الأشجار، مثل النسائم التي حولي، مثل صوت مياه الينابيع. كم تمنيت لو استمر هكذا إلى أجل غير مسمى. كانت الدنيا ملكي وحدي، وكانت السماء لي، وكانت الأرض لي، والأشجار والأعشاب، كل شيء كان لي. صمتّ برهة، أكفكف دموعي، وأشحن نفسي من جديد. وجدت أن الصمت جميل هو الآخر، إنه توحد مع الطبيعة، مع كل ما يحيط بي. يا الله كم هو جميل هذا الهدوء، لا حس ولا نس، لا بشر يشاركوني هذه الفرحة، تمنيت أن يكون هناك من يصاحبني، ويفهم الطبيعة كما أفهمها أنا الآن. لن أستطيع أن أنقل لأحد ما أشعر به، اللغة التي أملكها لا تكفي، وكذلك تعابير جسدي.

نسيم الهواء يوقظني كما يشعرني بالنعاس والهدوء. إنني في كامل وعيي. وكيف أعرف أنني غنيت وبكيت، واهتزت عروقي؟ ربما ما أعيشه هو وهم، هو حلم، هو رغبة. هززت رأسي عدة مرات لأتيقن وضعي، لكن يمكن أن يكون هذا أضغاث أحلام لا أكثر. ربما أنا الآن أعيش في العالم الآخر، ربما أكون ميتاً بعرف آخرين، فالحياة الأخرى هي مقابلة للحالية، فما هي الحياة الحالية هذه؟ لا أعرف والله. لا أحد حولي يخبرني بحالتي، لا أحد على الإطلاق. قررت أن أغني بصوت عالٍ. رفعت صوتي وقلت مما أحفظه: يا جبل يا عالي، والله هو العالي، على أطراف التلال، خليني أغني. لحنت هذه المقاطع بما استطعت، مططت حروفها مطاً شديداً حتى كادت تتفسخ، ثم عدت أجمعها قليلاً قليلاً، حتى تصبح أكثر سرعة، فلا تكاد تبدأ حتى تنتهي، وأعود أمط بعضها حيناً وأجمع بعضها الآخر حيناً آخر. سررت لهذا الاكتشاف خاصة وجسدي يتمايل بتناسق وبتآلف مع اللحن. حين علا صوتي، سمعت الجبال والتلال تردده من بعدي، أصبح أصواتاً متعددة بينها فواصل زمنية، وكلما انتهيت من سماعه، أعود فأغني ثانية. طربت أيضاً لهذا الحال، وبت متيقناً من أني وجدت شريكاً لي، إنه الطبيعة.

الطبيعة! أين تبدأ وأين تنتهي؟ لا أعرف. ماذا هناك تحت سطح الأرض؟ التراب والحجارة! وماذا تحت تحتها؟ وماذا فوقها؟ السماء! وماذا بعد السماء؟ وهل هناك سماء للسماء؟ هل هناك حياة في السماء كما في الأرض؟ أين تصعد أرواحنا؟ في أي منطقة يمكن أن تكون؟ أيمكن أن تكون فوق هذه الجبال وكفى؟ ما هي الروح؟ هل لها أجنحة تطير؟ كيف تعيش بعد أن نموت؟ لا جواب، لكن من حقي أن أسأل. من قال أن السؤال حرام؟ لم أسمع بذلك. أسأل أهلي والمعلمين بعض الأسئلة فيجيبون: عندما تكبر ستعرف، متى سأكبر؟ وهل هم يعرفون؟

يتحول التل إلى جزيرة معزولة مخفية، فالضباب يلفه من كل جانب، وتتحول الأودية إلى أنهار تحيط به، ويتحول رأس التل إلى ما يشبه القارب، لذلك أشعر بالأمان. تلتف حوله جبال، دير شريف من الجهة الجنوبية، وجبل بابون من الجهة الشمالية الشرقية، ويلتقي وادي الطواحين ووادي الزرقاء من الجهة الغربية ليصبا في وادي نطوف الشهير قبل آلاف من السنين. التل تحميه الجبال من كل جانب، إنه ابنها، تحرسه، تمنع عنه حرارة الشمس وغزارة الأمطار، إنه بقعة الله المحمية على الأرض. البحر كان هنا قبل آلاف السنين، تدل عليه المتحجرات في الوادي وعلى أطرافه. هذا ما لاحظت أثره، وما أخبرنا به مدرس الجرافيا، قال: أينما وجدتم متحجرات كان البحر. الضباب من فوقي ومن تحتي، فلا أكاد أرى إلا القليل. أنا وحدي في هذا العالم، لا أرى، لا أسمع، أحس فقط برائحة الرطوبة الجميلة من حولي. لا أشعر بالخوف، أشعر بالتوحد، تتصلب رجلاي، وتتخدر يداي، ويخفق قلبي قليلاً قليلاً، وأفكار جميلة تعيش داخل رأسي، بين أذني. لا أشعر بالخوف، إنها الطبيعة التي أنا جزء منها.

أمي تحوطني بدعاواها، وهي تتقرب إلى الله حتى ظننت أن ليس بينها وبين الله أية مسافة، فهي تناجيه همساً على العكس من نساء الحي اللواتي يصرخن ويرفعن رؤوسهن نحو السماء. أمي لا ترفع رأسها، تدنيه من صدرها، تخشع له، وتهمس أو تكاد، وهي تمشي، وهي جالسة، وهي نائمة، أظنها كانت تهمس همساً، وأيقنت أنها تقصد الله، وما كلمات الغزل والحب والملاطفة إلا إشارات نحو الله. الله يرافقها في كل حركة من حركاتها، وفي كل سلوك. هي تنام من أجل أن تصحو وتعبد الله، فالنوم عندها عبادة، والصحو عبادة، والعبادة عندها صلاة وصوم وعمل وكد وإخلاص للبيت وللزوج وللبنين وللأهل والأقارب والجيران. الله يرافقها في أكلها وفي شربها وفي تنفسها، فكل هذه تبقيها حية كي تعبد الله. الله فيها وحولها، وهي حولنا وفينا.

أبي يحرسني من بعيد بقوة عضلاته، كان يكفي أن أخبر أكبر زعيم في القرية بأني ابن فلان، فأرده، هكذا حصل مع مختار البلدة، ومع أبو الشباري الذي يقتل الثور بضربة واحدة، ومع الأخرس راعي الأغنام الذي يفهمها وتفهمه، ومع حارس أملاك الطبيعة صاحب أكبر دبسة رأيتها في حياتي، ومع الجندي الذي يتردد على القرية. وهكذا توقعت من الحيوانات، فالحمارة كانت مطيعة لي، والأغنام، والدجاج، وهكذا لم أخف الضباع أو ما يشبهها. كان يكفي أن أقف أمامها منتصباً دون حركة، يقف الضبع قبالتي، يتمعن فيّ وأتمعن فيه، يدور حولي مرات ومرات، وينسحب. لا بد أنه عرفني، ولا بد أن عضلات أبي كانت تحوم حولي، وتهدد هذه المفترسات، ودعوات أمي يقبلها الله بكل يسر، فهي الأقرب إليه، وهي المطيعة له، والداعية لطاعته.

ليس هناك فرق في الصيف ولا في الشتاء عما يحدث في هذه الجنة، فالبرد هو هو بين الأودية والتل، وعويل الرياح هي هي، لكن لا صوت للكلاب أبداً، إلا برفقة مارق الطريق. أنا الآن في الجنة. في الصيف، يكون الجو منعشاً تماماً، وفي الشتاء تكون المنطقة مصيدة للأمطار، وصانعة للرياح الخفيفة والنسيم العليل، وما الرطوبة المتوافرة إلا سبب آخر للانتعاش.

أبو زيد

في العريشة المنتصبة داخل المقثاة، صار لي بيت جديد، طلب مني أبي أن أبقى هناك، أحرسها، وآكل وأشرب، وأغني إن شئت. كان الشهر نهاية الصيف. رضيت بذلك، واستعددت له. المقثاة تعلو عيون سلمان، وتقابل عيون أبو شرعة، وتشرف على الباطن.
البيت العريشة يقف فوق رجم حجارة، تسوره بعض الصخور الكبيرة، وتنطلق منه أربعة أعمدة خشبية، تلتقي في القمة، مغطاة ببعض أغصان الصنوبر، والقط يرافقني. بدأت بجمع الأغصان الطرية من شجرة اللُبيد دائمة الخضرة، ذات السيقان اللزجة والأوراق العطرية، لأصنع منها مكاناً أنام عليه، وأصنع مخدة، وكانت الرائحة منعشة، وكان المكان جميلاً، كسرت الحاجز بيني وبين هذه الشجرة، فاستخدمتها فراشاً. كسرت حاجز الرهبة منها والناس يستخدمونها فراشاً ومخدة للأموات، فإذا كانت فراشاً للأموات، لماذا لا تكون أيضاً فراشاً للأحياء؟ ليس المطلوب مني عمل شيء، فقط أنا هناك، نبع ماء لا يبعد سوى بضعة عشرات من الأمتار، أعبئ منه مطرة بلاستيكية، مثل تلك التي يحملها الجنود، وبعض الشاي وإبريق وكبريت، وبعض الخبز أزودُ به كل عدة أيام، وأحفظه في مكان يصعب على النمل الوصول إليه كما أعتقدت.
ظننت أن الأمر سيكون سهلاً، لكن الحر وقت الظهر يمنعني حتى من أقضي حاجتي في مكان بعيد نسبياً، أشعر بالإنهاك، ويصعب علي النوم، أعيش بين السماء الصافية والأرض، كسل وملل، ومكان للتفكر، والوقت يمر بطيئاً وأكثر.
أود لو كانت المقثاة على رأس الباطن، فيردني قول أبي: لا مقثاة بين الأشجار الحرجية. أرى التل من بعيد، وأراه أكثر بعداً، بين هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب التي جفت واصفرت، أخشاها وأخشى ما فيها وما بينها وما عليها. وددت أن أرتاح، أغمضت عيني، فإذا بصرصور "أبو زيد" يطلق أصواته المعتادة، لاحقت بعضه، فإذا ما اقتربت منه صمت، وكلما ابتعدت علا صوته، أحاول اصطياده، يساعدني القط في ذلك، فإذا به يفر إلى شجرة أخرى وأخرى. تتحول المقثاة كلها، وما يحيط بها إلى فرقة موسيقية لا تتوقف. كل منها تنادي الأخرى، تغني للأخرى، أو تغازلها، أو تحذرها، أو تسلي نفسها، فالوقت قيلولة، وربما يكون هذا شخيرها. يا الله كم أكره الشخير والذين يشخرونه. معركتي مع أبو زيد هي معركة خاسرة، يجب أن أتعود ذلك، أن يكون جزءاً من حياتي، مثله مثل الهواء الذي أتنفس، ومثل خرير المياه، وحفيف الأشجار. يجب أن أتوحد مع هذه الطبيعة، وعندما أكون في المقثاة أصير جزءاً منها، وحين أكون في المطر أصير جزءاً منه، وأكون جزءاً من الصباح والمساء وكل الأوقات.
بين الغفو والصمت، نظرت غرباً، وقرأت في السماء: *وحين تكون معي تصير جزءاً مني، فأنا الشمس والقمر، والقيظ والمطر، والجبل والتل والوادي، وبصمت علي نادي، وإن كرهت فاصمت، أفهمك، فالله خلقك وقدرك، وإن غبت فإلي مرجعك.*

صمت

ربما نعست، ربما نمت، وربما رأيت ما رأيت، كان مناماً، فإذا بكائن يأتيني، يركض على الأرض، ولا أرى أياً من أطرافه تلامسها، يطير فوقها، يخرج من شجرة الخروب في كرم تين، وبأقل من لمح البصر يأتيني، فلا أخشاه، رأسه رأس ثور، وجسده لغزال، وعيناه لجدي، لا ثغاء ولا عواء، يقف أمامي، وأسمع صوتاً أن أركبه، فأجد جسدي فوقه، وأطير به، ويطير بي إلى الباطن، على قمته بالضبط، وتبدو لي حلقات التل متداخلة متواسعة، الأقرب أصغرها، فتكبر وتكبر، وأنا مبهور بما أرى، وقلبي يقف فوق جسدي، أحس به، ودقاته أسمعها واحدة أثر أخرى، ويتدفق الدم في عروقي، ولذة في جسدي، في رأسي بالذات، قشعريرة خفيفة، وما يشبه الخدر يتخلله، وحالة من اللاوعي تغشاني. أطير في السماء، وأتجول فوق التل، وأتطلع نحو الغرب فأقرأ: *يا بني، اصمت، ولا تكلم أحداً، نفسك لا تكلمها، أغلق فمك، وتبصّر، سنحفظك، وستعود وقد ملكت الحكمة والبيان.*

لم أجب الصوت الذي سمعته، ولم أجب الكلام الذي وعيته، وقضيت وقتاً، يوماً، يومين، ثلاثة، وأنا مشدوه بالأرض وبالسماء، وبالخلق والمخلوقات، ورأيت المعرفة أمامي، معلقة على شجرة رمان، ثمارها ملونة، وأغصانها تناديني أن أنال منها ما أريد، قالت: *كلما قطفت مني حبة، سينمو بدلاً منها حبات، وفي كل حبة بقدر ما تريد*. رأيت المعرفة بعيني وبأذني وبكل ما ملك جسدي من حواس، فكلي صار حواساً، وما علي سوى أن أطلق جسدي لأسبح في المعرفة، وأنال ما وسعت يداي وأذناي وعيناي، وحواس أخرى لا أستطيع وصفها ولا ذكرها.

أرى القرية كلها أمامي، أرى الأحياء والأموات، الصغار والكبار، كأني أجلس على شرفة. أرى الناس ولا يرونني، أسمع أصواتهم معاً، وأسمع كل واحد منها، التقطها، وأدور حولها، فتصبح مثل لعبة صغيرة أمامي. لم يعد للخوف مكان في قلبي، أحب الناس، وأحب الأرض وأحب السماء، واحترمها، وأقدرها، يتقبلني التل بصمت، ويقبلني الوادي والجبل والينابيع، وأراها جميلة، وتراني مثلما أراها، وأقرأ بصمت: *كل ما حولك جميل، فكن مثله، وكل ما تحتك وفوقك جميل، فكن مثله، فجميل أن ترى، وجميل أن تسمع، وجميل أن تشم، وجميل أن تذوق، وجميل أن تلمس، فأجعل ملمسك بهدوء، وكل شيء بهدوء، فلا تعكر الطبيعة، كن معها، ولا تكن عليها*.

أقف أو يخيل لي أني أقف في مركز التل مباشرة، أغتسل بنور الشمس، وبدفئها، وبمياه الينابيع كلها، وبالنسيم الذي يطهرني، ويجففني، وأرخي أذنيّ للريح، ولحفيف الأشجار، وصوت العصافير، رفرفتها وزقزقتها، وهمهمات أشجار العليق والعبهر، وأسبح مع الهواء، فأطير أينما أطير، مثل ريشة تعرف مسارها ومبغاها.

مطر مطر، ورذاذ خفيف كلما نظرت نحوه، أستحم به، وألعب به، عارياً كنت، وكاسياً كنت، كنت مع الشمس والريح والمطر، أجلس فأشرب ما لذ وطاب، استمتع به، أشعر بالنشوة، وأقرأ واستمتع بالمعرفة التي اكتسبتها، أقرأ التاريخ الذي مضى، والذي سيأتي. أغرف ما أمكنني من المعرفة، وأحفظها، لأكون رقيباً على نفسي وعلى الناس حين أعود. فأنا عابر سبيل، سأغادر هذا المكان، وسأعود للمقثاة والناس، فالمكان جميل، فيه بهاء الله، ونوره، لكني سأعود حيث كنت. وعدت.

الضبع

جاءني الضبع، وأنا بين الصحو والنوم. وقف أمامي، زمجر، أبرز أنيابه الطويلة، كشر عن أسنانه، سال لعابه، قدح بعينيه ناراً، لمعت عيناه رغم خفوت الضوء، اقترب أكثر. ماذا يفعل هذا الضبع؟ يبدو أن دعوات أمي لم تصل بعد، ولا يعرف أبي بحالي. أقف وحيداً دون ونس، لا إنس ولا جن في المنطقة، ليس هناك سوى أصوات النسيم الناعمة، والنعومة لن تفيدني. ماذا سأفعل؟

دققت في جسده، بشعره الكث، وبطول يديه نسبة إلى رجليه، فيبدو مائلاً إلى الوراء، كان بطولي تقريباً، وبارتفاع حتى خاصرتي. تمعنت فيه جيداً، يتطلع نحوي بعينيه البراقتين، وأنا أتطلع نحوه، يحاول حفر الأرض بأماميتيه، أشعر بأنه مستفز، على وشك أن يخوض معركة، ألتفت خلسة إلى الجهات الأخرى، لأتأكد أنه وحده. أطمئن قليلاً، يعوي من جديد، ويطلق أصواتاً مختلفة، تشبه أصوات الطيور، ينادي بأعلى صوته، أشعر بالرهبة، أخاف قليلاً، لكن ليس لدي خيار سوى المواجهة. أصعد إلى الحبلة الأعلى، وتتحول كل الحبلات إلى حلبات صراع، أقف عند حافتها، ويصبح أسفل مني، يتشمم الأرض، ويبول. انحنى إلى الخلف وفعل، أدركت أنه أنثى. شككت في البداية أنه ذكر، فعلامات الذكورة تبدو بين رجيله. لا هو أنثى، إنها أنثى. إنها أشد شراسة كما سمعت، لن أسمح لنفسي بأن أفقد وعيي، قالوا إن بول الضباع مثل المخدر، لكن الهواء المنعش من حولي يساعدني، سأظل أتنفس وأنا أقف في الغرب منها، والنسيم غربي، لن تنال مني. سأنال منها. الحرب. ما هي الحرب؟ إما أن تكون منتصراً أو مهزوماً، وفي هذه الحال بالنسبة لي ربما الهزيمة هي أن تهرب، هزيمتها سهلة، إنها خطة حرب، ولن تشعر بالأسى كثيراً، لكن هزيمتي ليست بالهرب. لا مجال للهرب، ستلحق بي، وتنهك جسدي، وتأكلني كما تأكل أية جيفة أو كائن حي، وستعود إلى أولادها ببقايا جسدي فرحة بما أنجزت. المواجهة تعني الدفاع عن حياتي، أن أعرف هويتي. لن يساعدني أحد، لا أحد في هذا الخلاء. لو عرف أبي وقرر أن يساعدني، فلن يصل قبل ربع ساعة من الآن. لا بد من خوض الحرب، ولن أسمح لها بالهرب، سألاحقها، إما قاتل أو مقتول، ولن أكون مقتولاً. سأكون القاتل. سأستعين بالمعرفة التي غرفت من هذه الطبيعة. ألم أكن في نقطة تشرف على القرية وما حولها؟ ألم أر الذي مضى والذي سيأتي؟ لكني لم أر الضبع، ربما جاء ليضيف لي معرفة أخرى.

هذه مثل الحروب التي سمعت عنها، بل هي حرب بمعان مختلفة، ولكل دوره فيها، وأنا لي دور أيضاً، بل أنا الطرف الأساس فيها، أنا الجندي الوحيد على هذه الجبهة، ولا أعلم أن هناك جنوداً يساعدونني، لو انتهى وجودي في هذه الحياة، سيمر كأي يوم، كيوم ذكرى، يبكونني بضع ساعات، يأكلون همي، وسيبدؤون من جديد كما بدأنا نحن من جديد. ربما لن يجدوا أثراً لي، ربما لن يجدوا بقايا جسد يدفنونه تحت الأرض، ليحفظوا عظامي على الأقل، لتبقى جزءاً من جسدي بعد أن ينتهي اللحم، سأكون فريسة هذا الحيوان الذي أمامي، ولن أتحول إلا عاملاً مجددا لخلاياه أو إلى براز. إلى براز؟ نعم ويذوب في باقي التراب في باقي الأيام. أنا لست قاتلاً، لكن إن لم أقتل الذي يواجهني سيقتلني.

لماذا أكون قاتلاً؟ هل أكون قاتلاً؟ هل أكلمها قليلاً، أغني لها، سأداعبها إذا شاءت، سأحادثها بالحسنى. حاولت، قلت: هل تقبلين أن نكون أصدقاء؟ رفعت صوتي حتى سمعت صداه. ورفعته أكثر عندما وجدت في ذلك أنساً. لم تجبني، حدقت فيّ، وهمهمت، فتحت فمها، وسال اللعاب، وتدلى أسفل ذقنها، حفرت بيديها الأرض، تشممت العشب، والشجيرات، حاولت أن تصعد، فأزحت بعض الحجارة نحوها، تراجعت قليلاً.

تطلعت نحوي، جحرت فيّ، ما بين اللوم والعداء، قالت: أنت الذي بدأت، فلتجن النتائج. بحثت عن طريق أخرى لتصعد نحوي، فمشيت بموازاتها، وكلما همّت بالفعل كنت أفعل فعلي. سألت نفسي: هل يمكن أن أختار مكان المعركة؟ وهل أستطيع أنا تحديده؟ اعتليت صخرة على طرف الحبلة، رأتني أبعد مما كنت، فحاولت التسلل، أزحت برجلي حجراً، فتراجعت. أبقت رأسها مرفوعاً، لم تخفضه، ولم ترجع ذيلها بين رجليها، ولم تزمجر متذرعة. فكرت: ماذا لو كان أبناء هذه الضبعة ورائي؟ إذن ربما تحاول الوصول إليهم، وليس خوض المعركة. لا، لا، لو كان ذلك لكانت أكثر عدوانية. المنطقة منطقتي، والمكان مكاني، وليس لها سوى الرجوع إلى مكانها هي. المكان ليس لها، فهي لا تعيش في أعالي الجبال والتلال، بل في الوديان والمناطق المختلفة، إنها بلا شك تحاول الاعتداء على منطقتي أنا. شعرت ببعض التعب في قدمي، أشبه بالتيبس، بدأتُ بالنطنطة، ليتحرك دمي، وأظل واعياً. جلست على الأرض، وهي تراقبني، أزاحت رأسها وكأن الأمر لا يعنيها، وليست في وارد القتال. لا، لا، إنها الضبعة، سأرهقها أنا. نزلت عن الصخرة، وعند كوم الحجارة المجاور، ألقيت بواحد، نظرت نحوي، ليست متأكدة مما أفعل، نهضت، فألقيت بثان وثالث ورابع وخامس. دارت نحو اليمين، لكنها لم تنزل، لحقتها بالحجارة وهي تطلق أصواتاً تشبه الضحك، وغابت بين الحبلات.

لأخرج من فم الموت، أصارعه، أكاد ألمسه، أعاديه، أنفخ في وجهه. يحاول الإمساك بي، بيدي، لكني ألكمه في وجهه، يدير خده ناحية اليمين، فأسدي له ثانية على يسراه، وكلما يمنّ يسرت، وكلما يسرّ يمنت. وألطمه للمرة العاشرة، يقرمز، فأدفعه برجلي، ينقلب، يدور حول نفسه في الهواء، ويطير. يأتيني من فوق كنسر ينقض على فريسته، أزيح جسدي بخفة، فإذا به يتكوم أرضاً، وبالعصا، وبشعبتها، ألكزه في عينيه، يفركهما، وبالطرف الأخر أوجه إليه لكمة على وجهه، يدور برأسه إلى الخلف، يوازن نفسه، فيدفع جسده إلى الأمام، وبكل ما أملك من قوة أمسك حجراً، وألقيه على ظهره. يشعر بالألم، أو هكذا ظننت. أقفز بسرعة إلى الحبلة الأعلى، فإذا به ينتصب في الحبلة التي فوقي. أمسك بالعصا، وأدور بها من كل جانب، من فوق وعلى جوانبي. فجأة أرى الشيء قد انكمش، وذاب في التراب. أين ذهب؟ لا أعرف.

ألملم جسدي، لتصالح روحي أو العكس. أحاول الهدوء، أصرخ: اهدأ، أنت في أمان. لكن جسدي ما يزال يرتعش، تصطك أسناني، وتهتز ساقاي، قلبي ينبض بكل ما أوتي من قوة وسرعة، فأصرخ ثانية: اهدأ، أنت في أمان. ويرتد الصوت، هو صوتي، لأسمعه من خلال صوت أبي وأهالي القرية. نعم، إنهم حولي، ما علي سوى الصراخ، وسيكون كل الناس في عوني. ما دام عقلك يعمل، وما دمت لم تستهلك قواك، فأنت قوي. لن ينفعك الخوف، إما الموت وإما الحياة. لا تصدق كل ما تراه، ربما حلم، حالة لاوعي. اثبت، لم تأت لهذه الحياة كي تموت هكذا، بين أنياب الضباع، الضبع لن ينال منك ما دامت لديك قوة، وأنت قوي.

قفزت في الهواء عدة مرات، ورحت أمارس بعض التمارين الرياضية التي تعلمتها في المدرسة، ما عدا تمارين الضغط، فلن أرسل أية إشارة للضباع كي تظن أنني استسلمت. قمت بتمارين الصدر والكتفين، والرقبة، والوركين. كدت أقع في البداية، لكن الدم تحرك في جسدي، وباتت حركاتي أكثر دقة، لأستمر فيها دون إنهاك جسدي. توقفت قليلاً، ورميت ببعض الحجارة في كل اتجاه، بدأتها ضمن الدائرة القريبة حولي، وأصخت السمع علّني أسمع خبطات حيوان قريب. لم أسمع سوى صدى بعض حجارتي التي قرقعت نحو الوادي، في وادي الطواحين على يميني، وكأنني شغلتها، ووادي دير ينون على يساري، فإن النبي ينون سيحرسني، لا حاجة لمساعدة من أبي وأمي. كدت أضحك، بل ابتسمت، تذكرت قولاً غنائياً يقوله أهالي بلدتي عن القرقعة: قرقع حجر في الواد، قلنا حرامية، أثاري أحمد حسين بخبط في العبودية. أما أحمد حسين فهو من الأجداد الذين عاشوا في قرية بيت اللو، والعبودية نسبة إلى قرية عبود التي تقع مقابل بيت اللو شمالاً، ويخبط بمعنى يواقعها، ولا أعرف ما هي الحركات التي كانا يقومان بها مما أدت إلى قرقعة الحجارة، وكل منا رسم لها صورته الخاصة. آه ربما هذا هو الحل، أن أزيح بعض الصخور فتنطلق ساحبة معها حجارة أخرى، تقرقع. فعلت، وسمعت زمجرة في الوادي لم أميز ما هي. على الأقل سأتأكد أن لا مفترسات تأتيني من تحت. سأركز الآن على الحبلات الأعلى مني. صمت فترة من الزمن، وتحورت إذناي إلى إذني غزال، أوجهها في كل اتجاه، وأحدد أيها الأكثر خطراً. بت على هذا الحال فترة لا أستطيع تحديدها. أهي ثوان، أم دقائق؟ الثواني تصبح ساعات في مثل هذا الوضع، وليس لي والله إلا الصبر والاحتمال والتشبث بالقوة. تحولت عيناي إلى عيني القط نفسه، اتسع بؤبؤاهما، وكدت أميز لو مر من المكان فرخ أفعى، فوق التراب وبين الحجارة. تمنيت لو كنت قطاً. ماذا يفعل القط سوى أن يظل متحفزاً لقتال. القط لا يهاجم وهو في حالة الخوف، ربما يهرب إذا كانت هناك فرصة لذلك، لكن أن تضع قطاً في مأزق، فإنه يحمي ظهره، وينكمش على نفسه، مبقياً يديه في حالة دفاع قادرة على القتل. وهكذا فعلت، خاصة والعصا هي مخلبي.

اقتربت نحو الصخرة في جوف الحبلة، ووليت ظهري لها. مر زمن على ذلك، وأنا أنتظر من يقفز من فوقي، فأباغته بضربة، يجب أن تكون الضربة قاضية. لا مجال لعدة ضربات، كل ضربة أخسر تصويبها، ربما تقضي علي. لا يهم عدد الضربات، الضربات الأولى هي الأشد، وهي الأكثر حسماً. لا أثر يبان من حولي.

ستكون هذه فترة أخرى لحماية نفسي، ماذا لو صعدت إلى أعلى التل، وهناك لن يتمكن أحد مني، لكن الصعود بهذا الاضطراب، وهذه القشعريرة التي تغيب ثم تعود، سيستغرقني وقتاً طويلاً. قلت أركض ركضاً، حاولت، صعدت حبلتين أخريين. خفت أن أنهك. كنت أستريح عند كل واحدة، وأقيّم الأمر. آه لو كنت صنعت عصاً أقوى من هذه. لا تغير سلاحك في وقت المعركة، هذا هو السلاح المتوفر لديك. اعتن به، وتمكن منه، لئلا يتمكن منك أعداؤك. طال المشوار، وأنا أصعد حبلة وراء أخرى، أسمع عواء يرتد بين سفوح الجبال، ليست كلاباً، ربما بنات آوى. قلت ربما هذه تخفف عني العبء، فالضباع تبحث عن الصيد السهل، آمل أن تكون قد أيقنت بأنني صعب المنال. هي لا تهاجم إلا إذا كانت متأكدة أنها ستنال مرادها. طار النوم من عيني، لا مجال لأفكر فيه، يجب أن أظل صاحياً. أقاوم حتى الصباح، أين الصباح؟ متى سيأتي؟

وجدت في إحدى الحبلات ما يشبه المغارة، ألقيت حجارة داخلها، لأطرد أي غريب فيها، لا غريب، سوى أصوات قليلة لطيور أو خفافيش. ألقيت حجارة أخرى، وأبقيت على مسافة من المدخل، لأفسح لمن في الداخل بالخروج. صوبت حجارتي في كل اتجاه من المغارة، وأيقنت أنها ليست عميقة، ولم ألاحظ حركة. دخلت حذراً، وأنا ألوح بعصاي في كل اتجاه، لم أر شيئاً. قلت: أسد بوابتها بالحجارة، وأبيت حتى الفجر. أحضرت صخورا مناسبة، سنسلتها حول المدخل، وأبقيت على مدخل لجسدي، أسده بصخرة حين أكون في الداخل. فعلت. نظرت حولي، فإذا بي أشعر أنني في سجن، أصبحت في خلوة، ابتعدت عن الفضاء، صرت تحت الأرض، مثل الأموات، وكأني لم أعش فوقها. هل أقبل بذلك؟ لا، وماذا لو أتت الضباع كسرب، ستطيح بالحجارة بيديها القويتين، وتنهشني قطعة قطعة. ستحطم الحجارة كما تحطم أقوى العظام، يبان ذلك من برازها الأبيض، فهي تأكل كل شيء، تطحن العظام، وتأكل اللحم، وسيكون لحمي وعظامي لقمة سائغة بين أسنانها.

لا بد من الخروج. أنا الذي سأقوم بتحطيم الحجارة، وسأمد عصاي أمامي لأبعد كل من يقف فوق المغارة. أخرج بخفة، أقف في وسط الحبلة، ولا أحد غيري. أتنفس بعمق، أتحسس جسدي، وأشعر بأني ما زلت في قيد الحياة.

الحية

يصحو أبي باكراً، ويصحيني معه. يصلي الفجر، وأصلي مثله. هو يجهر بالصلاة، وأنا أخجل أن أرفع صوتي، أحب الصلاة بصمت، أحب الصلاة وحدي، ولا أحبها جماعة. لا أحب أن أسير وفق معزوفة غيري، ولا أن أرقص مثل غيري، أحب أن أفعل ذلك وفق هواي، أتمايل برأسي وبكتفي، ثم أكسر النسق، لأبدأ بآخر، وأعود للأول، ثم أتحول إلى ثالث. أترك نفسي تفعل ما تود فعله، ولا أنسجم كثيراً مع الرقصات الجماعية التي يقودها واحد، ويتحكم من خلالها بحركات الباقين. كنت أغلق باب الغرفة وأرقص كما أشاء، وإذا ما كشفني أحد أشعر بالخجل. لا أخشع حين أكون في الصلاة وراء إمام، فهو يكسر تأملي في ذاتي، بأمر الله، وهو يقول: الله أكبر. وكثيراً ما قالها دون أن استغرق في الكلمات التي أرددها بيني وبين ذاتي. أحب أن استشعر هذه الكلمات، لتحاكي كل جزء من جسدي، تسرح فيه، وتجول، وتخدر رأسي، لأنطق بالعبارات الأخرى اللازمة.

يزودني أبي في الصيف بسلة، وبمجموعة صناديق خشبية، هي الصحاحير، وأسرح على كرم التين، أعبئها بالثمر ليتم بيعه بعد الظهر، وأملأ السلة بما لذ وطاب من التين المدهشة ألوانه ومذاقه. حين أصل الكرم، يكون الصبح لم ينفلق بعد، وأنتظر قليلاً أو كثيراً لأميز الحب الناضج من غيره. أضع خطة لذلك، وأنجز المهمة على نحو يمكنني من الانتهاء والعودة إلى البيت، لأبدل ملابسي، وأتوجه إلى المدرسة مع زملائي. الطريق بين بيت اللو ودير عمار تستغرق حوالي عشرين دقيقة، لأسلم نفسي للمعلم، ولمجموعة أخرى من الأوامر والطاعة والرفض والتنكر. أما في الشتاء، فيطالبني أبي أن أتفقد الحمارة التي تركها في "الطلقة" في الجهة الجنوبية الغربية من القرية، فأروح لأبحث عنها. أجد في ذلك متعة، وأنا أطل على "عيون سلمان"، ومنها أستطيع أن أشم رائحة تل "الباطن"، ورغم البرد القارص في الطريق إليه، وفي بعض الأحيان أحب لو أقضي وقتاً أطول، كم تمنيت أن أكون جزءاً منه، وأعيش نعمته. هذا التل يملكني، أرى فيه الحياة والنعيم. ربما قصد الله في كتبه هذا الموقع بالذات. فالأشجار تحيط به على شكل دوائر تصغر كلما صعدت إلى أعلى. حدثنا مدرس الاجتماعيات عن عجائب الدنيا السبع، منها الحدائق المعلقة، التي لم يبق منها سوى آثارها على حد قوله، لكني أراها أمامي كلما ذهبت غرباً. يسميه أهالي بيت اللو "باطن الحية"، وأدرك الآن معنى هذا الاسم، أنه يشبه الأفعى وهي تكعّك نفسها، لكن في هذه الحال، يبدو أن ذيلها يمثل رأس التل، بينما رأسها في الأسفل. الأمور مقلوبة في العالم الآخر، ألا يسمى العالم الآخر؟ دارت بجسدها عكس عقارب الساعة، بدا هذا الرأس رزيناً، وهو يقف في ملتقى وادي الطواحين ووادي ينون اللذين يصبان في وادي الزرقاء.

هل هي أفعى؟ وهل هذا ما اعتقده حول هذا التل؟ أليست الأفعى هي التي أغوت حواء، ومن بعدها آدم لأكل التفاح من شجرة المعرفة، وهكذا باتا عاريين، يغطيان عورتيهما بورق التين أو التوت؟ فكيف لا أعتقد أن هذه الجنة، أو أن رأس التل هو مركزها؟ نعم، إنها هي، فيبدو أن الأفعى بعدما قامت بمهمتها، وكانت السبب في الخروج من الجنة، تيبست هناك، تحجرت، تحولت إلى صخور وحجارة، ظلت هناك، بهذه الضخامة وهذا الوقار، وبعث الله أفاعي على شاكلتها على الأرض، وفي جحورها، ليظل الإنسان متذكراً متفهماً لأمر الله وحكمته. أفعى الجنة، تقف هناك أمامي، تشكل تلة بين الجبال، تجمع الأودية، ليتشكل الوادي العظيم، وادي نطوف أو وادي الكبارية الهندسية، بداية الحضارة، وبداية الزراعة، وبداية التمدن. هذا ما أخبرنا به

المعلم في درس التاريخ رغم أني لم أفهم معاني هذه المصطلحات بدقة. هنا الجنة. إنها هنا في أرض فلسطين، وهي تلك التي تقف أمامي منذ بدء الخليقة ربما أو قبلها.

أكاد أفهم الآن، لماذا تتجمع هنا الديانات الثلاث، ولماذا هي الحروب، ولماذا ُطردنا من قرانا ومدننا الأصلية. هنا أصل الحياة، ربما هنا عاش الإنسان الأول والثاني، وربما يعيش هنا الإنسان الأخير، وسيرجع إليها، وحين يعود تقوم هذه الأفعى من غفوتها، تصحو، وتبعث من جديد مع عودة الإنسان إلى الجنة، وربما ستقوم بفعلتها ثانية، لتعود الحياة إلى سابق عهدها. سألت المدرس يوماً: لماذا تسمى الحية حية؟ رمقني بطرف عينه، وانقبض حاجبيه، وزمّ شفتيه، أدار بوجهه في الجهة الأخرى قليلاً، كأنه يستكشف نظرات الطلبة الأخرين، اقترب مني، ومسكني من طرف كتفي وقال محاولاً الابتسام: إنها حيّة. بصراحة لم أفهم ما قصده تماماً، ولم أود أن أطرح مزيداً من الأسئلة، خفت أن يلطمني، أو يوبخني. اكتفيت بالجواب، وبت أبحث عن إجابة ترضيني.

أنظر إلى التل، باطن الحية، فأجد أن المكان صغير، فهل سيتسع لكل البشر الذين سيدخلونه؟ إنه يتسع ربما لما يوازي سكان قرى بيت اللو ودير عمار وجمالا والتي تحيط بها، فأين سيذهب الباقون؟ هل هذه حكمة ربانية؟ فأصحاب الجنة عددهم قليل، وأمي ستكون منهم كما أعتقد، وما دون ذلك سيذهب إلى النار، أو ربما سيحاكم الله البشر على مراحل، فيُدخل فوجاً الجنة، ويعيدهم إلى الأرض، ويليهم فوج آخر. ألم يخلق الله الناس على مراحل؟ فهل يبعثون على مراحل أيضاً؟ ربما! أو ربما هناك ما يشبه هذا التل لكل مجموعة قرى ومدن، فالجنة ليست على ما أظن مكاناً واحداً، هي أماكن ومستويات، ولكل منا جنته.

وربما ما آراه ليس سوى تجسيد للموقع الذي ظلت فيه الحية، والجنة هي كل الجبال والسهول المحيطة، وعندها سيكون رواد الجنة أكثر بكثير. إنها على امتداد نظري حتى تصل إلى مشارف بلدتنا الأصلية وما بعدها. إنها أوسع من مدى نظري في كل الاتجاهات، لكن أين هي النار؟ لا أعرف، ربما في الصحراء العربية، فهناك درجات الحرارة العالية، وهناك الغبار، وهناك حيث لا أمطار، ولا شتاء، هكذا أخبرني أخي الأكبر الذي يعيش في الجزيرة العربية. أو ربما هي ما وراء مدى نظري، أو قرب الشمس، بحيث تجعل من الشمس أكثر اصفراراً، أو أكثر زرقة، فوقودها الناس والحجارة، إنها في منطقة بعيدة لا أستطيع تحديدها، لكن ما أراه هو الجنة بعينها، وما الأفعى المتلولبة أمامي إلا دليل عليها.

أستطيع الآن أن أرى الجنة، وأن أعيشها. لكن أين تذهب المياه السائلة في هذه الأودية، أليست الأودية هي امتداد للأنهار؟ بل هي أمهاتها. لأول مرة أرى أن الأمهات أصغر من الأبناء. فالأودية أصغر من الأنهار، والأنهار أصغر من البحار، والبحار أصغر من المحيطات. أليس كذلك؟ سألت نفسي. هل سيضج الماء ويرتفع ليصبح جزءاً من البحر، الذي أرى طرفه على مسافة؟ نعم، إنها هي. الجنة بالنسبة لي هي حياة، حياة أخرى سأعيشها، ولن تنتهي عندما أغادر هذه القرية أو قريتي الأصلية. إنها الانتقال من مكان إلى آخر، وكما أرغب المكان الأول، أرغب المكان الثاني. يا الله، ارحمني وأجعل مأواي هذا المكان من الجنة، فلن يستغرقني الانتقال من مكان سكناي إلى هنا سوى بضع دقائق، وسأهرول إليها حافياً عارياً، فلا أود من الحياة الدنيا، إلا الانتقال إلى الحياة الآخرة، وما أجملها.

عندها سأهجر والدي وأقاربي راضياً مرضياً، مع العباد المؤمنين، وأدخل الجنة، بعيداً عن سلطة الأسرة وسلطة المدرسة. وسأنعم بالحياة، وكلما اشتقت إلى القرية، أطلب من الله، فيلبي رغبتي، وسأظل أتردد ما بين الناس وسكان الجنة.

كشف

يزعجني أن أظل أسير صفوف المدرسة، وفق جدول يتكرر كل يوم، على مدار الأسبوع، ويعيد الأسبوع نفسه في الشهر، والشهور تعيد نفسها. المدرسة تبعدني عن باطن الحية حتى وإن كان مؤقتاً. المدرسة حصص من العربي، والحساب، والاجتماعيات، والانجليزي، حتى حصص الرياضة تتحول إلى ما يشبه التدريبات العسكرية، خاصة بعدما جاء الأستاذ عبد ربه، بخبرته الكشفية، وأراد منا أن نكون كشافة، نتحمل المسؤولية ونحن صغار، قال: أنتم رجال المستقبل. تفكرت في هذه المقولة، وماذا يفعل رجال اليوم؟ لا أعرف سوى ما يعكسه أبي ومن هم في جيله. يزعجني أكثر أن أنام وفق أهواء والدي، فبدل أن أتسامر أنا وأخوتي، أو أصحابي، يطلب مني أن أنام مبكراً، ولا أفهم هذا الحرص الشديد. أتقلب في الفراش كثيراً خاصة حين يسأل أمي إن كنا قد نمنا. هذا سجن آخر يمنع عني حريتي.

سألت نفسي عن المتعة ومكانتها في الحياة، فالحياة ممتعة. يقشعر بدني حين أسمع رجال الدين وهم يكثرون من الحديث عن الموت، وكأنهم يريدوننا أمواتاً ونحن أحياء. إذن لماذا خلق الله الحياة؟ أليس من أجل الحياة؟ وما الحياة إلا كدح وعمل ومتعة نراقبها بما يرضي الله. لا نسرق، لا نقتل، لا نظلم، لا نكذب. أن نتمتع بالحياة، وأن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها. وما المال والبنون إلا زينة الحياة الدنيا. الحياة هي من أجل الحياة ونتق الله، وسنموت كما تموت الكائنات الأخرى، وسنقابل الله، وسيحاسبنا حول ما فعلنا من خير أو شر.

طابون

في هذا التل، الواقف أمامي، المحاط بالجبال، بين الأشجار الجميلة، حيث لا يستطيع أحد أن يراني، بينما يمكنني أن أرى كل ما حولي، سأنتقي تلك الشجرة، شجرة الخروب، وأعيش تحتها. وهل سيكون الخروب في الجنة؟ لماذا اخترتها في الجنة، وخشيتها في الدنيا؟ أليست هي الأخرى من خلق الله؟ سأمارس حياتي بالطول وبالعرض، وكلما عطشت، ستطال يداي مياه الوادي، ربما يكون نهر الخمر عن يساري، ورغم عدم خبرتي بذلك، سأنتعش، وستصطف الحواري من حولي، اللواتي يشبهن صفية، ونمارس حياتنا كما يجب، وسأقول لها: أحبك، وسترد عليّ: أحبك. لا أريد غيرها، ولن أسألها عن شعورها ولن تسألني، فنحن نعيش في الجنة، وهذا يكفي. وسأعيش ليلا نهاراً معها، نأكل من ثمارنا، ومن ثمار الجنة، خاصة تفاح دير ينون الذي لا يبعد عني إلا القليل، سأمد يدي وأقطف متى أشاء، ولا حاجة لسرقته كما يفعل الفتية، فهو ملكي كما هو ملك كل الذين يعيشون معي في الجنة. وسنأكل من لحوم الشنار الطازجة، أحب صينية الزغاليل، وأحبها في الطابون. ليس هناك طابون في الجنة. ما أدراك؟ كل شيء هناك. لكن رائحة الدخان تمنع الرؤية خاصة في الصباح، اذن سيكون هناك طابون من نوع آخر، يقوم بالمهمة. ألا تحتوي الجنة على كل ما لذ وطاب؟ وما الطابون إلا أداة ما لذ وطاب. اذن سيكون هناك كل شيء، كل ما أتمناه، وسأعيش في النعيم. هل طيور الجنة للأكل؟ لا، هي لمتعة الناظرين، وسأستمع بها.

هل سيكون هناك في الجنة من الحيوانات التي لا أحب، أبو زيد مثلاً؟ لا، فهذه تزعجني رغم أني أحب الإمساك بها. وماذا لو تمنيت أن يكون القط برفقتي؟ أحب القطط، وهذا القط بالذات. هل ستكون هناك جنان لكل نوع من الحيوانات التي أعرفها؟ لا أعرف، لكني أسمع أن الديك يوحد الله، والعصافير. والحمام؟ ربما أنزل الله عليها كتباً، لكني لا أعرفها. لماذا أطرح كل هذه الأسئلة. يكفي أن أعرف بأن الله يلبي كل رغبات الإنسان في الجنة، وربما تكون هذه واحدة من رغباتي. وهل سيكون هناك أفاع؟ لا أعرف. اخشاها وأخشى العقارب وأم أربعة وأربعين، والضباع. ضباع؟ الله فقط هو الذي يعلم بكل ذلك.

أبي

ماذا سأصبح عندما أصير بعمر أبي؟ هل أصبح الآمرُ الناهي في البيت وفي محيط العائلة؟ هل أصبحُ محل مهابة الجيران وأهالي البلدة؟ وهل سأحمي أبنائي كما يحميني الآن؟ أنا من أكون؟

لا أعرف تماماً، وماذا لو أصبحت مثله، من سيكون هو؟ هل أكون له منافساً أم سيظل أبي، أطيع أوامره، وأهرب منه، وأحضر قبل أن يلفظ اسمي؟ من سأكون؟

هل يكون دور الرجل البالغ مثلما يفعل هو؟ وماذا يفعل؟ هل أستطيع ذلك؟ سمعته يهمس لأمي: هل سيكون أولادي مثلي؟ لكني لم أعرف كيف أكون مثله، وهل سيسمح هو بذلك؟

أبي يصحو صباحاً قبل أذان الفجر، أسمعه وهو يحادث أمي قليلاً، يتوضأ، ويصلي، ثم يوقظنا نحن أولاده وبناته، لنذهب في الصيف لقطف الثمار، وفي الشتاء لرعاية الماشية قبيل ذهابنا إلى المدرسة. يأتي إلينا ليحل مكاننا. عند العصر وحين نصل البيت، نأكل سريعاً ونلحق به في الحقول، نعود في المساء، نتناول بعض العشاء. يتسامر هو وأصدقاؤه حتى ساعة أظن أنها متأخرة، ثم يطلب منا النوم فنفعل.

لم أفهم يوماً لماذا هذه القسوة التي يمارسها أبي ضدنا، حتى إني شككت أن يكون أبي. في عصر ذلك اليوم، وأنا لم أبلغ السنوات الثماني، كنت في الصف الثالث، أجلس بجانب أمي وهي تلف الملفوف. جاء أبي من المقهي، وهو يحمل عصاً رفيعة عالية المرونة، تشبه مطرق الرمان الذي يحمله الشيخ عبده، سألني: هل أنا أمنعك من الأكل؟ قلت: لا. لماذا تفضحني أمام الرجال في المقهى؟ مدير المدرسة خزاني وهو يلومني بسبب صحتك. سبّني بكل أنواع المسبات: أبوك، أمك، عمك، خالك، ..، والعصا تعلو وتهبط على ذراعي ووسطي، وأنا أختبئ وراء أمي، وهي لا تحميني، وكأن الأمر لا يعنيها. بكيت بأعلى صوتي، وتألمت عله يتوقف، ولا أدري متى توقف. شعرت بالسرور بعد الانتهاء، فربما طار الجن الذي في جسدي، وأصبحت أكثر نقاء وتصالحاً مع جسدي ونفسي.

وأنا في الصف الرابع، وكنا لبسنا ما حسن من الثياب ونظف، وقفنا في الطابور، وأصر المدير أبو العبد أن يفتتح العام الدراسي بكلمة شديدة القسوة. مما أذكره، أنه قال: سأضرب بيد من حديد. وحين كنت أراه يضرب طالباً، تصورت أن يده قد استبدلت بقضيب حديد. أما الأستاذ عبد ربه، فأصر أن يعاقب طالباً شك أنه تبرّز في غرفة الصف، ناداه في الطابور الثالث، بعد فرصة الغداء مباشرة، وأجلسه على كرسي الخشب بشكل معاكس، و "أطعمه فلقة"، هو يتألم ويصيح، وأنا أتألم معه، لنكتشف فيما بعد أن الفاعل هو طالب آخر. أما في الطابور الصباحي، فنراوغ كي لا نشرب حليب وكالة الغوث، أو لا نبلع زيت السمك. من لا يحضر معه كأس الحليب البلاستيكي، يدفع ثمنه ضرباً، ومن لا يشرب حبوب زيت السمك، يلاقي لطمة على وجهه. ولأني لا أحب زيت سمك وكالة الغوث طلب مني أبي أن أحضر له الكمية التي أستطيع فيتناولها هو.

اشتكيت لأبي أن ابن المدير، عريف الصف، يسجل اسمي على اللوح نكاية بي. ذهب أبي إلى بيت المدير مباشرة، وطلب من ابنه أن يتوقف عن ذلك، فتوقف. لكنه لم يستطع منع ابن المدير وابن مربي الصف، وأخ استاذ الحساب أن يحتلوا المراتب الأولى في الصف.

ماذا سأصبح عندما أصير بعمر أبي؟

المدرسة

الأستاذ ميشيل، مدرس الجغرافيا، أحب أناقته في الملبس والمشي، وأحب شموخه وهو يتجول في الساحة بين الصفوف، لكني لا أفهم دروسه جيداً، وأنا لا أحب الجغرافيا ولا أستوعبها. يأتي بالخريطة، يعلقها على الحائط، ويحدد لنا الدول المحيطة بالدولة المعنية، ويطلب منا أن نكرر ما يقوله. كان الدرس عن دولة لبنان، ولم أفهم منطق أن نحدد الشرق والشمال والجنوب ليكون سوريا وفلسطين، ولم أفهم تماماً كيف يكون البحر المتوسط غرب فلسطين ولبنان وسوريا. ألا يمكن أن نقسم البحر المتوسط إلى أجزاء، فنقول المتوسط الجنوبي، والمتوسط الوسط، والمتوسط الشمالي، أو أسماء تقرب إلينا المعاني وتفرق بينها. لا أعرف هذه الدول إلا من خلال الأغاني التي تبثها الإذاعات، ولم أفهم كيف تم رسم هذه الحدود بهذه الأشكال المتعرجة. ألم يكن من الأفضل أن تكون مستقيمة؟ أشار المدرس يوماً أن هذه البلاد كانت ولاية واحدة، تم تقسيمها قبل النكبة.

الأستاذ ميشيل جاحظ العينين، مرتخي الجفنين، مدور الوجه، سابل الشعر، متوسط القامة، عريض المنكبين، يمشي كأنه يدب على الأرض دباً، يتكلم بأقل العبارات الممكنة، حتى أنه في الصف يكلف أحد الطلبة ليقوم بالتدريس، وتسجيل الحضور والغياب، وجمع الوظائف، وأرشفتها، وتوزيعها. حسدت عريف الصف على هذه العلاقة الواثقة مع الأستاذ، وتمنيت أن يتم اختياري مثله في صفي. غرفة الصف هي غرفته الخاصة، فيها يأكل ويشرب، وينام أحياناً بين الحصص الدراسية.

الأستاذ ميشيل يتحدث باللهجة المدنية، ونشعر بالخجل ونحن نتحدث اللهجة القروية، نحاول أن نتحدث مثله فلا نفلح، ويتحول كلامنا محل تندر من أنفسنا. عيناه محمرتان، لاجئ مثلي من منطقة اللد، يحب الطبيعة، ونحن نحبها. سألني مرة عن طبيعة عمل والدي، أجبته أنه فلاح، فضحك غضباً، وصحح لي إجابتي: قصدك تقول مزارع. ولم أفهم حينها الفرق بين المصطلحين، وحاولت أن أفسر فهمه، لأتوصل فيما بعد أن المزارع يعني مهنة، بينما الفلاح هي صفة لساكني القرى مقارنة بساكني المدن، ولم أجد لفهمه تفسيراً مقنعاً.

معظم حصصه في الربيع تتحول إلى جولات في الوادي القريب من المدرسة، يطلب منا أن نجمع الحلزون. أخبرنا أستاذ آخر أنه يأكله. شعرت بالتقزز. كيف يأكلها، فهو مثل البزيق، يُريل وهو يتجول على الصخور الرطبة، وحين يلتصق بها، تصعب إزالته. نحاول ذلك بأظافرنا، فينز الدم تحتها. أشعر بالقرف، لكن إذا كان الأستاذ ميشيل يأكلها، فهو قابل للأكل. أخبرني أحدهم بأنها لذيذة، خاصة مع المشروبات الروحية، ولم أفهم تماماً ما هي الروح إلا كما وردت في الدين، فالروح من أمر ربي.

تجرأت أن أكلم الأستاذ بلهجته، وسألته: كيف تأكل هذا الشيء المقرف؟ ولفظت القاف همزة، وضحكت، فإذا بكفه تلطم وجهي، وتطيح بي أرضاً. وقعت في الطين، تلطخت به، شعرت في البداية بالحرج، لكني تأملت فيما قلته، وكيف وصلته الرسالة. بلعت الإهانة واعتبرتها ثمناً لهذه الجرأة. ضحك الأولاد من حالتي، وضحكت معهم دون أن يشعر الأستاذ بذلك.

صفاء

كان صباح اليوم التالي امتداداً لما حدث ليلة أمس. لم نلق تحية الصباح، فقط لاحظنا أننا ذاهبان إلى المدرسة، في الطريق، مشيت أنا على جهة الشارع، ومشت هي على الجهة الأخرى. لم نتحدث، إذا أسرعتُ أسرعتْ، وإذا أبطأتْ أبطئُ. استغرقنا الأمر أقل من نصف ساعة دون أن تلتقي عينانا، لكنا لم نبتعد. كنا مثل صديقين حميمين متخاصمين، يحمل كل منا مشاعر ود تجاه الآخر. مررنا بالحقول، وبالكروم، وبالكسارات، وبالبيوت، دون اتصال لفظي. كان اتصالنا بشكله الذي جرى مفهوماً ومقبولاً.

لم أقصد أن أراها عارية، ولم تقصد هي الأخرى، ما جرى أني كنت برفقة أختي إلى بيتهم، وكان موعد استحمامها، وهذا عادة يجري في الغرف للصبايا، وفي الساحات للذكور. أقسم بأن نظرتي الأولى لم تستغرق إلا جزءاً قليلاً من الثانية، ولم أنظر بعدها، غرست نظري نحو الأرض، وهي لم تكف عن البكاء، وتود أن ينتهي هذا الطقس بسرعة. وبسرعة أيضاً، اندست في فراشها، وبكت وبكت ونامت، وبقيت أنا أعصر جسدي، وأود أن أخبرها، بأني لم أرها، وحافظت على شرف علاقتنا، حتى إني لم أنظر إليها وهي نائمة.

والتقينا صباحاً، ولم نتحدث، ثم التقينا مساء. سألتني، فأجبتها، فقالت: لماذا لم تنظر نحوي؟ لقد كنت أناديك بأعلى صوتي، حتى سمعني الجيران، ولم تسمعني.

الجن

أخشى كروم التين، وأخشى شجرة الخروب فيها، ولا أعرف إن كان الناس هم الذين زرعوا في كل كرم تين الشجرة هذه أم أنها من صنع الله، فالله أوجد الخير والشر، والدنيا والآخرة، والوادي والتل، والنهر والجبل، والأرض والسماء. فهل الله خلق التي أتت لخراب هذا العالم وغرسها أينما يكون هناك كرم تين؟ أأوجد الخير والشر؟ ما الذي أقوله؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. لكن الله أمهل ابليس حتى يوم الآخرة، فيعيث في الدنيا فساداً، وليختبر بني آدم على طاعتهم لله. أليس هناك نصب لإبليس في مكة المكرمة، وعلى بعد أمتار من الكعبة، ليرجمه الحجاج كل سنة؟

كان الوقت مبكراً جداً، تكاد أشعة الشمس توقظ القرية ومن فيها. قال أبي: يا ابني، أود لو تعبئ لنا هذه السلة من التين في منطقة الظهور. وكانت المنطقة تقع شرق القرية على ظهر تل، وأنا أتحسس من الشرق وما فيه. أحب غروب الشمس ولا أهوى شروقها، غروبها فيه سكينة، وشروقها فيه انطلاق وفوضى. أما القمر فأحب ظهوره هلالاً، ولا أحب انتهاءه، أحبه وهو رافع قرنيه إلى الأعلى، ولا أحبه مقلوب الرأس، أحبه وهو يصعد ولا أحبه وهو يهبط.

لا يمكن أن أرفض لأبي طلباً، أمسكت بالسلة، أمشي الهوينا، خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. أنظر نحو الكرم من بعيد، وأتمنى أن يأتي هو، ولم يأت. بت أخطط لأقوم بالمهمة بأسرع ما يكون، أن أعبئ السلة بثمار التينة التي تقع على الطرف الغربي منه، وأن أبقى متحفزاً لأية نأمة. لكن ماذا لو لم أجد ثمراً ناضجاً عليها، فسأنتقل إلى الشجرة التي بعدها، وهكذا، وسأتجنب أن أنظر إلى شجرة الخروب أو اقترب منها. أنا لا أخشى الشجرة بحد ذاتها، بل أخشى الجن الذي يسكنها.

لاقاني عاهد في الطريق، ولاحظ ارتباكي، قال: يبدو أنك ستذهب إلى كرم التين؟

- نعم.
- ألا تلاحظ أنني كنت هناك؟
- لا.
- جئت من هناك هارباً، طلع لي الجن، ولاحقني بالحجارة، ولا أعرف كيف أفلت منها.

أأصدقه؟ حتى لو فعلت أو لم أفعل، لا بد من الوصول إلى هناك.

- أتذهب معي؟
- أنا مشغول قليلاً، سأحاول أن ألحق بك.

مشيت متمهلاً عله يلحق بي، تطلعت نحو الخلف، ولم أره. كنت على بعد أمتار قليلة من الكرم، تجنبت أن أنظر إلى الشجرة، أغمضت عيني قليلاً وأزحتهما في الجهة الأخرى، ورأيت ما يشبه الثور يركض أمامي بسرعة البرق، رمش جفني مرات ومرات، مسح زجاج عيني، وتطلعت مرة أخرى، ولم أر شيئاً.

أمسكت بالسلة بشمالي، وصعدت على الشجرة بأقصى سرعة، وبأقصى سرعة جمعت ما استطعت من الثمار، حتى إني لم أدقق في مدى نضجها، فإذا بحجارة تطير نحوي. قفزت مرة واحدة، وتناثرت حبات التين على التراب، فإذا بعاهد يقف أمامي، سأل: خفت؟

- نعم
- يا رجل، لا تخف، لا يوجد جني على هذه الشجرة ولا غيرها، مجرد أقاويل. تعال نعبئ السلال جميعها. الجن موجود في داخلنا، وليس على الشجرة.

مرة أخرى طلب مني والدي أن أذهب إلى الكرم وقت العصر، والعصر أيضاً وقت قيلولة، وهذه المرة كنت مع أختي، وأحبت أن تقيل تحت شجرة التين، ولم أعرف ما أفعله سوى مراقبة الكرم متجنباً أن أنظر نحو شجرة الخروب، نظرت نحو أعلى الجبل، وكانت حمارتنا قد سرحت تبحث عن أكلها، راقبتها، وعتبت عليها، لماذا تبتعد هذه المسافة عنا.

- دير بالك على الحمارة، إذا ابتعدت اذهب وقربها.
- ألا تفيقين من نومك، وتؤنسينني؟
- دير بالك.

مشيت في الحبلات العليا، أتطلع مرة نحو الحمارة، ومرة أمامي لأكتشف طريقي. سمعت خشخشة أمامي تماماً. توقفت وأصخت السمع. تيبست واقشعر بدني، وأمسكت بالعصا جيداً، فإذا بحرذون يقف على أعلى صخرة، وأفعى قصيرة الطول، لكنها عريضة، تحاول اصطياده. هدأت قليلاً، فلست أنا المستهدف، وأخذت أراقب ما سوف يحدث. دارت الأفعى حول الصخرة، ولم تستطع الصعود بسهولة، والحرذون يدير رأسه في هذه الجهة مرة، وفي جهات أخرى مرات. يبدو أنه أحس بخطر ما، وأحسست أنا أيضاً بخطر ما. لماذا أخشى الأفاعي لهذه الدرجة؟ إنها جزء من الطبيعة، وهو تقوم بما تقوم به من أجل أن تعيش. كم من مرة وجدنا أفعى داخل السقيفة أو في ساحة الدار، فكان أبي يأتي بعصا، ويضربها على رأسها، فتموت. لم أشعر في يوم ما أنها تقصد الإيذاء، إنها تسعى من أجل رزقها، مثلنا تماماً، وإذا كانت الأفعى هي التي دلتنا على شجرة المعرفة، وحفزتنا على التفكير، فلم نعد متكلين، فلماذا هذا العداء بيني وبينها؟ ألم يقولوا في الأمثال: جنب العقرب لا تقرب، وجنب الحية حط رأسك ونام؟ حاولت الصعود على الصخرة مرة أخرى، فهرب الحرذون إلى صخرة أخرى، ولوّح برأسه علّه يجد مكاناً أكثر أمناً. توقف قليلاً، وبات يحرك رأسه، كأنه يصلي، وكنا نغني له حين يفعل ذلك، وكان سعدات يقتله ويغسل يديه بدمه ليخفف من آلام ضربات المعلم بالمسطرة الطويلة، بالمؤشر. ابتعدا عني وابتعدت عنهما، رغم ظني أن هذه هي الأفعى "الزعرة" الخطيرة جداً. ومن قال إنهما لا ينظران نحوي كمصدر خطير جداً؟

بت على بعد أمتار من الحمارة، كنت على وشك الإمساك بها، ونظرت إلى الحبلات الأعلى التي تمنيت أن أجلس في ظل زيتونها، وتربتها السمراء، دققت النظر فإذا برجل يركب حمارة في سفح إحدى الحبلات، ويقفان متجمدين. ماذا أرى؟ أهذا رجل وحمارة؟ لماذا لا يتحركان؟ الحمارة تضع رأسها في الأرض كأنها تأكل، والرجل جامد فوقها. إنهما ليسا كذلك. إنهما جن. هكذا قلت لنفسي، فالجن ممكن أن ينتحل أشكالاً مختلفة. ركضت بسرعة نحو الحمارة، قفزت فوقها، لأسرع نحو كرم الزيتون، فإذا بها تستفز، وترفس في الهواء، وتطيح بي أرضاً. صرت أصرخ، فإذا بأختي تأتي مسرعة، تمسح وجهي بيديها، وتقول: اسم الله عليك. لا تخف، كان يكفي أن تقرأ بعض القرآن.

كان يوم جمعة، والكل نيام، حين طلب أبي مني أن أذهب إلى "عين البلد" وأعبئ على الأقل غالوني ماء، ففي الصباح الباكر يكون تدفق الماء أكبر، والزبائن قليلين. أتردد من داخلي، ولكن لا بد من القيام بالمهام الموكلة. ما يحاوله أبي هو أن يساعد في نضجي قبل الأوان، وأنا أقبل بذلك، هكذا حاولت أن أقرأ أوامره ونواهيه. أحضرت الحمارة، وحمّلتها أربعة غالونات، ومشيت. كنت أسمع من بعيد أجراس المواشي، فالرعاة هم أيضاً خبروا هذه الفترة جيداً، يصلون المراعي قبل أن تشرق الشمس، فتأكل الأغنام بعيداً عن حرارة الشمس، وكنت أسمع صياح ديكة من هنا وهناك، وكنت أشم رائحة دخان الطوابين، وصوت مؤذن في قرية ما قريبة.

كنت وحدي، وقبل أن أصل النبع، على بعد مسافة منه، توقفت الحمارة عن المشي، جمدت مكانها، لكزتها بالعصا، فلم تتحرك. لم تهرب، ولم تنهق، ولم تتراجع، كما لم تتقدم.

تطلعت أمامي فإذا بسد أبيض يقفل الطريق. دققت ثانية، فإذا بمجموعة من العمالقة يلبسون الأبيض، ويمسكون بعضهم بعضاً، يصنعون حاجزاً، يرتفعون عن الأرض مسافة ما، فلا يلامسونها، وتكاد رؤوسهم تلامس السماء. لا يتكلمون ولا يتحركون، فقط يسدون الطريق.

لا مفر. هذا قدر. ماذا أفعل؟ وهل أستطيع أن أفعل؟ خرّ قلبي حتى لامس قدمي، مت من الخوف، طوقني من كل ناحية، ولا مجال لإغماض عيني، أو لتراجع، أو لتقدم. لا أعرف كم مكثت على هذا الحال، ثواني؟ دقائق؟ ولولا أني لم أر الشمس مشرقة لقلت ساعات. جف ريقي، واصطكت أسناني، وكدت أتكوم على نفسي، فلا عظام تحملني، ولا عضلات تسندني. وبدل أن أترك جسدي يذوب في التراب، تماسكت قليلاً، وانحنيت، وركعت، وسجدت، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، سبحانك ربي العظيم، سبحانك ربي الأعلى.

كان وجهي ملامساً للأرض مباشرة، مغمض العينين، مسلماً نفسي لخالق هذا الكون. لا أعرف أيضاً كم بقيت على هذا الحال، لكني سمعت الحمارة وهي تزفر، ثم تتحرك، رفعت عيني نحوها، ونحو الذي كنت أراه قبل قليل، فلم أشاهد شيئاً، كل شيء ذاب في الهواء أو طار فيه. لذت بالصمت، وكذلك الحمارة، لا يقطعه سوى خرير مياه النبع، ونقيق بعض الضفادع.

لا أعرف كيف وقعت في مصيدة أبو سعدات، حين طلب من أبي أن أقرأ المندل، فشروط قراءته أن يكون طفلاً لم يبلغ الحلم بعد.

أبو سعدات، تمت سرقته كما ادعى، سرقت منه مائة دينار من بيته. كان قد باع بعض البعير، خبأها في البيت، بين الفراش، وحين تفقدها، كانت قد ضاعت. أحضر شيخاً من قرية بيت سيرا الملاصقة للمنطقة الحدودية، له اتصال بالجن، ويستطيع التوصل إلى السارق، ولحظة حدوث السرقة.

مكث الشيخ عدة أيام، حاول أن يجعل سعدات هو القارئ، ولم يفلح. فكان أن وقع الخيار علي.

أدخلني في غرفة، سد بابها، وبدأ يقرأ ويتمتم، ويريني ظفر إبهام يده اليمنى، ويطلب مني أن أتعرف على الشخص الذي فيه.

لم أر شيئاً، وكلما أجبته بهذا، صرخ في الجن أن يظهر الصورة، أدقق مرة أخرى وأخرى، ولا أرى شيئاً. حدد منطقة ما في ظفره، وقال إن الصورة ستظهر هنا. كانت الغرفة معتمة، ولم ألاحظ صورة. صرخ وصرخ، وهو يشير إلى صورة ما. لم أرها، وتخيلت سعدات وأم سعدات فيها، وتخيلت آخرين، لكني لم أفصح له عن أي شيء.

حين أفرج عني، جاء أصدقائي، ليسألوني عن الجن، وأخبرتهم بأنني شعرت ببعض الخدر، ولم أسمع سوى صوت الشيخ وهو يصرخ، ويتمتم. لكنها تجربة جديدة لي مع الجن، ومع هذا الشيخ مباشرة.

عيون سلمان

أجد في عيون سلمان وما حولها ملاذا، لا أخشى الوحوش التي يتحدثون عنها، ولا أخشى الأفاعي الكبيرة والسامة، ولا أخشى العرابيد. الله يحميني، كيف؟ لا أعلم. عيون سلمان هي غار حرائي، وغار ثوري، هي عالمي الآخر الذي أعيش فيه، وأتأمل الدنيا وما فيها، هي الطريق لباطن الحية، هي الطريق لجنتي.

تطير روحي فوق جسدي، وتراه من أعلاه، وتراه من داخله. تصيبني رعشة ممتعة، يخفق قلبي حباً، وتلقي عليّ سلاماً. أسير ولا أشعر بالأرض من تحت رجلي، وأتمنى أن تبقى الحياة هكذا حتى يأتي يوم القيامة.

عيون سلمان فيها من الفواكه ما تطلبه الأنفس، وفيها من الخضار ما لذ وطاب، والمياه لا تتشكل فقط في البركة ومن بين الشقوق، بل تنساب أيضاً تحت أرجلنا ونحن نمشي هناك. تشرف على باطن الحية، وتغازله، وتدعوه أن ينضم إليها، وتعده بأن مياهها ستصله في يوم طوفان آت، لتنعش الحياة الأخرى، ولا تعاقب أحداً.

جلست مقابل البركة تماماً، وراح النسيم العليل يداعب وجنتي، شعرت بالنعاس، فاستندت إلى جذع زيتونة، وربما نمت قليلاً أو كثيراً، صحوت على فتية وفتيات، يلعبون بالماء، يبللون أنفسهم بماء البركة، ينامون فيها وينهضون، ويتراكضون، ويتضاحكون. كانوا عراة تماماً. أذهلني المنظر، ففغرت فمي، وجحظت عيناي، وخَفَتَ نفسي. لا يشعرون بالخجل، ولا يشعرون بالملل، وأنا كذلك. أمتّع نفسي بما يحدث أمامي، ويشيرون إلى أجساد الآخرين بمتعة وبصدق طفولي. يرشون بعضهم بعضاً بالماء النقي، ويختبئون بين الأشجار ويعودون إلى الماء، أو يلحق الماء بهم. ربما كانوا عشرة، أو أقل كثيراً. فتحت عيني على اتساعهما علني أرى ما أرى بأوضح صورة، وسرت في جسدي قشعريرة لطيفة، تمنيت أن أكون بينهم، أن ألعب لعبتهم، وأكون من فريقهم. أكون هكذا كما خلقني الله، وأترك جسدي لسجيته، واستمتع بالماء وبالظلال، وأتناول ما طاب ونضج من ثمار العين. رأيت الفتية هم أيضاً ثماراً في هذه العين وحولها. أطلت النظر، وموسيقى أصواتهم تطربني، ووجدت نفسي أنام ثانية. يا الله ما أجمل الجنة وساكنيها، وأنا سأسكنها.

غشاوة سدت وضوح الرؤية، تطلعت نحو السماء، فإذا بي أقرأ: *وخلقناكم ذكوراً وإناثاً لتعرفوا الله حقاً حقاً.*

صفية

أأكون سعيداً بما جرى، أم أنه في الواقع لم يجر شيء مطلقاً!

كان جمعة، ولم يكن فات على الفجر إلا أقل من ساعة، حين حمّلني والدي عصاً وزوادة صغيرة، فيها خبز وبندورة وجبن، ممسكاً بالغنمة الشامية وأولادها الثلاثة، طالباً أن أذهب برفقة جارتنا قرب عيون سلمان لنرعاها.

خرجنا من الحارة، أنا وصفية، نحو المرعى الذي يبعد حوالي ربع ساعة عن البيت. دون أن يصبّح أحدنا على الآخر. بدأت هي الأخرى تفرك عينيها، لتستيقظ، ولتفتح عينيها ونرى ما هو أمامنا وما خلفنا. الأغنام متشوقة للوصول، تهرول، تفلت أحياناً ذات اليمين وذات الشمال علها تلتقط ما رأته من عشب أخضر، ونحن مصرين على أن تناول وجبات اليوم لم يبدأ بعد.

استقر أمرنا أن نرعى الأغنام في سفح جبل دير شريف، كان الجو بارداً قليلاً، وضباب الوادي يحاول الانقشاع دون فائدة ملحوظة. كنا في وسط الضباب، والأغنام نهمة في تناول وجبتها الصباحية. يا الله كم تأكل، تمضي ساعات وهي تأكل. لماذا نكتفي نحن بثلاث وجبات، أما هي فوجباتها متتالية؟ تركض من موقع إلى آخر، علّها تصل إلى عشب لم يصله غيرها. تقضم هذه النبتة، وتتحول إلى تلك، لكنها تحافظ على سرب المجموعة، فهي لا تبتعد عن بعضها كثيراً، تعيش حياة جماعية، تنادي بعضها بثغاء نفهم بعضه، ولا نفهم الكثير الآخر. أفهم الآن لماذا لا تتحدث الحيوانات آكلة الأعشاب مثلنا، إنها تكتفي بما تصنعه الأرض، أو ببعضه، وهي ليست بحاجة لاستخدام أوتارها الصوتية أكثر من ذلك، إنها ترسل رسائلها بكل ما تريد: جوع، عطش، خوف، فرح، تعب، أما نحن فصرخاتنا لا تكفي، فتدربنا لنقول أكثر، ولنتواصل أكثر، وربما لنكتب أكثر وأكثر، هكذا أخبرني أخي الأكبر المختص باللغات. الغنمة الأم، تعطف على صغارها، وتناديها أن تأتي، وإذا ابتعدت قليلاً تحذرها، وتجمعها، ربما مثلنا نحن، ربما مثل أبي وأمي وإخواني، تشكل أسرة، تتسع، وتتسع، ونعيش، لكن الأغنام غير واعية بمصيرها، فالإناث ستعيش، وسيصبح لها أبناء، تعيش من أجل نفسها ومن أجلهم، يقاسم البشر حليب صغارها، أما الذكور، فمصير لحمها طعام لنا. يا الله ما أصعب هذا المصير. إننا نقضي على أرواحها من أجلنا، من أجل حياتنا. كم يبكيني حين يذبح أحدهم سخلاً، وهو يصرخ أن لا، تحز السكين رقبته، ويسيل الدم، ويحاول التشبث بالحياة دون فائدة. نأكله، ونستمتع بطعم لحمه. هل نحن غير واعين لحياتنا؟ هل هناك ما يمثل ما هو أكبر وأكثر وعياً منا، نعيش ليستفيد هو منا، يقتلنا ليعيش؟ ربما. ربما المرض، يهاجمنا، ويعاركنا، وحين نموت يأكلنا، حتى لو وضعنا الميت تحت التراب، فكائنات تهاجمنا، وتأكل لحمنا، وتبقى العظام التي نراها. ألم يقولوا أكلته الديدان؟

لكننا أكبر حجماً من الأغنام، نذبحها، ونأكل لحمها، فهل من يستفيد من حياتنا. هل هو أكبر منا؟ لا، فنحن نأكل أيضاً الأبقار وهي أكبر منا حجماً. اذن ليس شرطاً أن يكون المستفيد هو الأكبر حجماً، لكنه قادر على ذبحنا. أين تنتهي هذه السلسلة بالاستفادة من الحياة؟ من هو سيد كل هذه الكائنات الحية؟ الله. سبحانه وتعالى، فكيف يستفيد من حياتنا؟ بالعبادات. نعم نوحده، ونعبده، ونعيش من أجل رضاه، فهل يرضى؟ كيف؟ ولماذا؟

لو كانت حياتنا مثل هذه المواشي، فربما أبي لن يذبحني، ربما يبقيني لأصبح ذكراً بين إناث، مثل عتود الأغنام، أو مثل كبش النعاج، أو هكذا وددت. ومن يضمن لي أن جدي لن يذبح أبي، وهكذا إلى أصل السلسلة؟

أنا وصفية في الجبل، في دير شريف، وهو الذي يشرف على الجنة التي أعرفها، "باطن الحية". الضباب يلفنا من كل جانب، ومدى الرؤية لا يتجاوز العشرين متراً. الأغنام تسعى بكل جهدها لتجمع العشب في فمها، تلوكه، وقبل أن تبلعه تكون قد بدأت بجمع باقة أخرى. أغنامنا تتآلف، تأكل معاً، وتمشي معاً، وتتهامس، والصغار يتدربون على الأكل واللهو. شيء من البرودة نحس به، وشيء من الانتعاش يلامسنا ونحن نراقب الأغنام. قالت: تعال هنا، ننزوي لنشعر ببعض الدفء. اقتربت منها، وجلسنا تحت صخرة تشكل ما يشبه المغارة. قالت: أحس ببعض البرودة، هل تقترب أكثر؟ اقتربت، قالت: أكثر. اقتربت. قالت: هل تحضنني. مددت يدي بخجل، فقالت: مثل والدينا. أدركت أنها هي الأخرى لها ذاكرة مماثلة. انفتح فمي، وقلت: أحبك. فقالت: أحبك. واحتضننا أكثر وأكثر.

سألتها: هل تشعرين بلذة؟ قالت: أريدها أكثر، أشعر ببعض الدفء، أريد دفئاً أكثر. وشعرت أنا كذلك.

قالت: هل أراك وتراني دائماً؟ أومأت لها أن نعم، وشعرنا أن هذا حسن. قالت: هل أشعر أنك ملكي؟ قلت: نعم، وشعرنا أن هذا حسن. قالت: هل نتبادل نفسيّنا؟ قلت: وهل يمكن؟ قالت: مجرد تصور ذلك. تصورته، وتصورت أني أفعل ما تفعله وأقول ما تقوله، وتقول ما أقوله، وشعرنا أن هذا حسن جداً. حضنتها أكثر وأكثر، وحضنتني أكثر وأكثر. سألت: هل أؤلمك؟ قالت: أشعر بلذة في كل مكان من جسدي. سألتها: أين موقع اللذة؟ أجابت: في كلي. سألت: وهل تشعرين بلذة في رأسك؟ أجابت: جسدي كله مثل النار، ووجهي مثل وجهك أحمر كالجمر. وكان كل هذا حسن جداً جداً.

- هل تقبلين أن تتزوجينني؟
- هل تقبل أن تتزوجني؟
- هل تقبلين بي زوجة في الدنيا والآخرة؟
- هل تقبل بي زوجاً في الآخرة والدنيا؟ انتظر قليلاً.

ذهبت خارج المغارة الصخرة، عدة دقائق، فإذا بها تشكل شعرها ببعض الحنون، وتقدم لي طاقة أخرى منه، وتحضنني.

خرجت أنا الآخر خارج المغارة، وأحضرت قبضة من الحنون، وأهديتها، وحضنتها. صنعنا خواتم من أغصان النباتات، وألبس كل منا الآخر في خنصر يده اليمنى، ثم نقلناها إلى اليسرى، فعلنا مثلما خبرنا ما يحدث في القرية.

- اليوم هو عرسنا، لنرقص أولاً. ورقصنا، حجل وتمايل، وقبل على الخد.
- نحتاج إلى شاهد يا صفية.
- الشاهد هو الله، وهذه الجبال والتلال والأودية.
- لكنها لم تسمعنا.
- اسمعها.

صرخت بأعلى صوتي، وفعلت هي كذلك، حتى ارتدت أصواتنا، لتؤكد شهادتها.

- سأبدل ثيابي كما تفعل العروس.
- أين هي الثياب التي ستبدلينها؟
- سأفعل، أو تصور ذلك.

خرجت من المغارة، وعادت وقد قلبت ثوبها، ورقصنا معاً. خرجت من المغارة، وألقت بثوبها أرضاً، ورقصنا مرة ثالثة، وفي الرابعة، ألقت بثياب، ورقصنا، وفي الخامسة لبست الفستان مرة أخرى، وفي السادسة، خلعت ثياباً أخرى ورقصنا، وفي السابعة ألقت بكل ثيابها أرضاً، ورقصنا حتى طال الرقص.

- ألا تشعرين بالبرد يا صفية؟
- أشعر بالدفء وأنت بجانبي. اقترب أكثر تدفأ أكثر.
- وماذا نفعل الآن؟
- مثلما يفعل العروسان.

التصقت أجسادنا، وتمايلنا، ورقصنا بهدوء.

- اقترب أكثر.
- اقتربي أكثر.

أحسست بنشوة في رأسي، وأحست هي الأخرى بنشوة في جسدها. شعرت ببعض الألم اللذيذ، وسألتها إن كانت تشعر بالألم نفسه. أجابت: أشعر بوجودي، وأشعر بوجودك معي، أشعر بوجودنا معاً. وأعلنا معاً أننا زوج وزوجة. كان هذا فوق الحسن كله.

كنا قرب المقثاة، في الخلة، في قاع الواد العريض، أرض رطبة حتى في الصيف، رائحة خليط ما بين الخضار والتراب. أكلنا الفقوس والخيار، وحتى بعض حبات البندورة، كنا نشعر بالشبع الخفيف، أمسكت بيدي لنصعد نحو بيوت القرية، لم نخش أن يرانا أحد، ولم نشعر بالخجل، فالفتيان يلعبون بطرق مختلفة.

همست: أنت زوجي.

همست: أنت زوجتي.

قالت: لنجعل من هذه المغارة بيتاً مؤقتاً لنا.

- صارت لنا بيوت كثيرة. ألست سعيدة بذلك؟
- كل الأماكن بيوتنا.
- أأستطيع تقبيلك؟
- أنت لست بحاجة لأذن، لنفعل ذلك كلما رغبنا.

دخلنا المغارة المتجهة بوابتها جنوباً، حيث تحوي داخلها قبوراً قديمة. تجردنا من رقابة المجتمع وأشارت أن اقترب، فاقتربت. اقتربت أكثر، وفعلت هي كذلك، حتى بتنا شبه جسد واحد. طال وقوفنا ونحن نشعر بمتعة هذه اللعبة، شعرب بقوة تجذبني نحوها. سألت: ألا تستطيع الاقتراب أكثر؟ ألا تستطيع أكثر؟

مر وقت ونحن على هذا الحال، وقررنا أن اللقاء انتهى هذا اليوم، وسنحاول مرة أخرى.

مطر

الشتاء يحاصرني، ويحاصر كل أهالي القرية.

مطر لا يتوقف، وبرد شديد يرافقه، والوقت ظهيرة. طلب أبي أن نبدأ بجمع الحطب لإيقاد كانون النار لنتدفأ. وجد أبي أن حمارتنا ليست في البيت، وطلب مني أن أذهب وأبحث عنها.

- أين أذهب؟ أين هي؟
- يمكن في الخلة.
- أية خلة؟
- خلة الأرانب. وأشار بيده نحوها.
- في هذا الجو الماطر؟
- نعم.
- سأبتل.
- ستتدفأ حين تعود، سنوقد كانون النار. ستذهب حافي القدمين.
- كيف يمكنني ذلك؟
- هذا أخف عليك بالمشي في الطين.

مشيت قليلاً. البرودة تتسرب نحو عظامي، وعضلاتي تنتفض. قال: عندما تمشي تشعر بالدفء. سألت: هل أنت جاد؟ الحمارة ستأتي وحدها. أمر: انقلع من وجهي، لا تأت إلا وأنت معها.

مشيت قليلاً فوق بلاط ساحة البيت، شعرت بالبرودة أكثر. انتقلت إلى الطريق أمام بيتنا، فوخزتني الحجارة، تألمت. حثني أن أكمل، أكملت حتى بت لا أشعر بأي ألم. الضباب كثيف، وتحول المطر إلى رذاذ محتمل، انتفض جسدي، وبت أشعر بنشوة الرغبة في الإنجاز.

انحدرت في حبلات الوادي، واحدة بعد الآخرى. سألت نفسي: كيف أنادي على الحمارة لتفهم أني قريب؟ لم أعرف، فهناك لغة مشتركة ننادي بها القطط، والكلاب، والأغنام، لكني لا أعرف لغة الحمير، واستقر رأيي أن أصدر أصواتاً، فهي لا بد تعرفني من خلال صوتي. الحمارة تستطيع أن تناديني، نهيقها يدلني، لكني لم أتعلم لغة نداداتها. ربما هذا قصور مني، ومن الناس. ربما لهذا السبب، أنعم الله علينا، بألا نستطيع مناداة صاحب أنكر الأصوات، وتنادينا، تعلمنا فقط كلمة "هيش" حتى تهدأ أو تتوقف عن المشي، أما كلمة "حا" لتمشي بعد أن كانت واقفة، أو لتقف إن كانت راكدة. سليت نفسي بأن أغني بأعلى صوتي الأجش: يا حمارتنا، يا حلوتنا، نملي المي، ونلهو شوي، ونرجع على سقيفتنا. بت ألحن المقطع بأكثر من طريقة، أعلي صوتي حيناً، وأخفضه حيناً آخر.

ابتدأت في الخلة من طرفها، لا بد أن أبي يعرف مكانها، ومشيت الوادي الوادي. صارت الحجارة أقل كثافة، وانغمست رجلاي في الطين، رفعت البنطال حتى أعلى من الركبة. استحسنت اللعبة، ومشيت في وسط الوادي، لئلا أعلق في الطين. المياه باردة، لكنها مثيرة وهي تمسد على جلدي، أنتقل نحو الطين تارة، ونحو الماء تارة أخرى. وغنيت، حتى كاد يبح صوتي. في منتصف الطريق، وجدت نفسي وقد وقعت في

بركة أكثر عمقاً. تزحلقت ووقعت فيها، حتى ابتل كل جسدي. صرخت في البداية وأنا أكاد أغرق. تمسكت بالطين من حولي، كان ما يزال صلباً، شهقت، وعدلت من جسدي. ماذا لو غرقت؟ من سيعرف أني غرقت؟ أنا الآن مسؤول عن نفسي وعن الحمارة. لماذا لم أتذكر هذه الحفرة؟ أليست نفسها التي اختبأت أنا وصفية فيها، وافتعلنا أنها بيتنا، استلقينا فيها، وشعرنا أن لا أحد يرانا، وحاولنا أن نلهو بقدر الإمكان، ولم نعرف ماذا نفعل.

جلست بمؤخرتي على طرف البركة، ثم نهضت، وأنا أحمد الله أنه أجلّ أجلي، ثم درت حولها في الطين. تجاوزتها، وعدت إلى مسرب الماء مرة أخرى. لم يعد البلل يهمني، ولم يعد الطين على جسدي يعنيني. حاولت أن أدقق نظري إلى الأمام، أن أكون يقظاً من الضباع إذا جاءت. الآن لا أخشى الأفاعي، فهي في بيوتها مختبئة. حملت بعض الحجارة الزلقة المكوّرة، لأدافع عن نفسي. فكرت: ماذا لو أتت الضباع؟ لن تستطيع المشي في هذا الطين. الطين يحميني، ففرحت به وأنست، وارتددت إلى قناة الماء مرة أخرى. آه، كان يجب أن أحمل عصاً بيدي، فهي ستساعدني في المشي، وفي اكتشاف ما حولي.

أنا أحفظ الطريق جيداً، أعرف المنطقة في كل الفصول، بقيت مسافة قصيرة لأصل شجرة زيتون قريبة. اصمد، وستصل. منها سأكسر عرفا، غصناً، وسأستخدمه كعصا. انهمر المطر بشدة، حتى بت لا أستطيع فتح عيني. حاولت أن أوازن بين سرعة الوصول، والحفاظ على نفسي حياً. يجب أن لا أذوب في الطين، وألا أقع في حفرة أخرى. لا، لا يوجد حفر أخرى، الأرض ستتحول إلى صلابة أكثر، سيقل الطين، وستكثر الحجارة. غطيت وجهي لأتقي المطر، فإذا بي تحت الشجرة. حمدت الله أني وصلتها، فإذا بالحمارة تنهق قليلاً، لتشعرني بوجودها.

أنا والحمارة تحت الشجرة، المطر كثيف في محيطها، لكن نقاط الماء النازلة من أغصانها أقل كثافة، وأكبر حجماً. لاحظت أن الحمارة تنزوي في الجهة المعاكسة للمطر، تحت فرع سميك، ففعلت مثلها، فإذا بصوت أبي يناديني. فرحت، وأجبته إني وجدتها، وجدتها، وعدت فرحاً.

اختناق

في اليوم نفسه، طلب مني أبي أن أشعل كانون النار، أحضر بعض الخشب العريض والرفيع، أصب بعض الكيروسين، وأضع فوقه المدخنة، وهي عبارة عن إناء معدني مفتوح الطرفين، لم أعرف آلية عمله إلا لاحقاً، لكنه يوجه النار إلى داخلها. كانت مراسيم إشعال النار ممتعة، نكسر الخشب، ونضيف قليلاً من الجفت، لترسل أشعة في اتجاهات مختلفة، وتصعد النار أعلى فأعلى، وتنقطع تلك في الهواء، لتبدأ شعلة أخرى من الأسفل. قررنا أن النار استوت، ونقلنا الكانون، ولأن الجو بارد، أبقيناه في الداخل.

لا أعرف كيف نمنا، لكني أعرف أن أبي دخل علينا، وفتح الباب على مصراعيه، وهو ينادي كل منا واحداً واحداً، نشرب ماء، ونتجول. طلب منا أن نخرج إلى الساحة، كان المشي صعباً، أصبحنا شبه سكارى، من الصعب أن نفتح عيوننا، ومن الصعب أن نوازن حركتنا. شعرت بأني في حالة بين الصحو والنوم. هدني التعب، أرغب أن أعود للنوم، والجو بارد، لكن أبي رأى أن لا ننام لنصف ساعة على الأقل، وأن نتنفس هواء نقياً قدر المستطاع.

لا أعرف كيف عدت للنوم، لكني عرفت معنى الموت، أو أن أكون على حافته، فإذا كان بهذه الصورة فإنه سهل، لم أحس به. هل هو كذلك؟

عرفت أن أبي لم ينم تلك الليلة وهو يتفقدنا هو وأمي. كان غاضباً.

في الصباح وقبل الذهاب إلى المدرسة، قال: ارجعوا بسرعة، سنغير بيتنا.

رغم العلاقة غير الودية بيني وبين السقيفة، لم أشأ أن نغير البيت، ولم أعرف ما هي معالم البيت الجديد، لو كان العودة إلى بلدتنا التي يصفها أبي بالجنة لفرحت، فالجو هناك أكثر دفئاً، والأرض لنا والبيت لنا، وسنكون أقرب إلى البحر. تأنيت في المشي وأنا أعود، لكني حين وصلت البيت، وجدت أبي صامتاً، وبقينا صامتين طيلة اليوم.

قيظ

حملت جسدي متثاقلاً، ومشيت، صرت أقرب إلى جبل الخروبة، ناديت بأعلى صوتي، وكان الجو حاراً، ولم أر سوى بقايا غبار تتطاير مع وقع خطواتي. كان الجو قائظاً، ليس فيه نسمة ريح، ليس هناك بشر في البرية. فقط الله والأرض والشمس وأنا، وهذا الحر الذي يحرق الأجساد حرقاً. انتبهت فجأة إلى صوت يقترب مني، دققت فإذا بها أفعى عظيمة، طولها أكبر مني، وقطرها يفوق قطر ساقي. قطعت المنظر عن عيني، أدرت جسدي، وأطلقت ساقي للريح. تخيلت أن كل الأفاعي ورائي، تحاول الإمساك بي، وفي هذا الجو الحار، الكل في قيلولة، ولن يساعدني أحد. لن تنفعني كل الحجارة من حولي، وليس لدي عصاً أدافع بها عن جسدي. الحل هو الهروب. لم تهمني الأشواك التي علقت بأطرافي، ولا الحجارة التي نالت من قدمي.

لا أعرف كيف وصلت، لا أعرف كيف كنت أتنفس. فقط عرفت أني على مقربة من الدار. صحت بأبي أن ينقذني، رأيته يخرج أخيراً من الباب، ويسأل، ولا أجيب. وقفت بجانبه، دققت النظر في الطريق التي أتيت منها، فلم أحس بأية علامة مما رأيته وسمعته.

تذكرت أنه قبل حوالي ثلاثة أشهر، كنت وعاهد نتجول هناك. حدثني عن إمكانية صيد الأرنب البري، وكيف واجه القط البري. فإذا به يطلب مني أن أصمت. استجبت، وتوقفت عن الحركة. انحنى أرضاً بهدوء، تناول حجراً، وسدده نحو شيء ما، فإذا بها أفعى تتلوى، ولا يتحرك منها سوى ذنبها. أيقنت أنه قتلها. هل هذه الأفعى جاءت للانتقام لما حدث؟ وهل عرفتني دون باقي البشر؟ هل تقصد أبي؟ لكنها اختفت. هل ستعود؟

في المرة القادمة سأحاورها، ستسمعني. أخبرني أحدهم أن أفضل طريقة لمحاورة كلب ضال أن تتناول حجراً بيدك عن الأرض، دون أن تلقيه، ترفعه لكي يراه. الكلب يوقن أنه على وشك خوض معركة، الأجواء مشحونة، والقصف لم يبدأ بعد. هي حالة من التفكير، وتقليب الأمر وموازنته لاتخاذ قرار أكثر حكمة. ماذا لو فعلت ذلك مع الأفعى، فرغم صغر جسدي، أستطيع أن أرفع حجراً، وأن أمسك عصاً باليد الأخرى، لأبلغها بأني أنوي المواجهة، حينها ستقف أمامي، ستقف على ذيلها ربما، متحفزة مثلي، تتفكر في أمرها. سأطلب منها معروفاً، أقول لها: لو سمحت أريد أن تدليني على شجرة الحكمة في الأرض، فلدي رغبة أن أعيش في عالم دنيا الدنيا. لا شك ستفعل. الآن أستطيع فهم ما قاله النبي موسى، حين قابل الله، وسأله عن العصا التي يمسكها بيمينه، ومما أجابه: ولي فيها مآرب أخرى. لن أفكر كثيراً بما يعنيه بالأخرى، ولن أفكر فيما علمنا إياه مدرس اللغة العربية والتربية الدينية، لكني أفهم الآن أن الأخرى تعني أيضاً الدفاع عن النفس، أو مهاجمة عدو، أو تشكيل أداة ردع للآخر.

لماذا لم أتنبه إلى الأماكن التي تعيش عندها الأفاعي، والنباتات التي تعشش قريباً منها. ربما الخروب؟ ربما، هي منطقة آمنة، فالناس يخشونها، وهي تشعر بالأمان فيها. لكننا نأكل الخروب. أذن لا بد من مراقبتها، لتدلني على شجرة الحياة، وشجرة المعرفة، فتنفتح عيناي على ما لم أكن أراه، وينفلق فكري على ما لم يرد على باله.

عين أبو شرعة

كانت أختي وقريباتي وجاراتنا، قد نهضن باكراً، جمعن الملابس في أكياس قماش، وطلبن مني أن أهيئ الحمارة ليغسلن الثياب. وجدت نفسي وقد وصلنا عين "أبو شرعة"، نبع الماء، الذي يشرف على عيون سلمان من الجهة الغربية، وعلى باطن الحية من الناحية الشرقية الجنوبية. تعرفت على نبع الماء، فكان عبارة عن مغارة، مركز النبع في الداخل، طولها حوالي ثلاثة أمتار، وبابها مشرع نحو الشمال، ربما لهذا السبب اسمها عين أبو شرعة، الماء ليس عميقاً، وهناك من ألقى الحجارة الكبيرة منها والصغيرة، ليستطيع الوصول إلى أصل النبع، ليشرب ربما ماء طاهراً نقياً. تنتشر بعض الضفادع حول جدرانها الداخلية، ربما هربت مني، تصمت ولا تصدر صوتاً، أما "الدغبس" فينتشر في الماء، يبحث عن طعامه، وينتقل من مكان إلى آخر. أما شعر الغولة، فينتشر أخضر اللون بدرجات مختلفة حول الحجارة وعلى جدران المغارة. لم أستطع أن أدرك أن هناك مغارة وأنا خارجها، فهي مغطاة بشجر العليق، الذي يحمل ثمر التوت طعمه يجمع ما بين الحموضة والحلاوة. أوصتني أختي أن أمشي حذراً لئلا أعلق فيه.

طلبت البنات جميعهن مني أن أجمع الحطب، وكمشة من "القديح" الذي يشتعل بسرعة. وجدت تلك فرصة لأعرف المكان. نزلت حبلتين أو ثلاثة، فإذا بطرف "باطن الحية" أمامي. يقف ببهاء بين هذه الجبال المحيطة. كم هو جميل هذا التل، أشجار الصنوبر والسرو تجعله أكثر بهاء. جلست أرضاً، أتمعن فيه، تمنيت أن أقفز فأجد نفسي هناك. هناك تطيب الحياة، وما الحياة إلا متاع الدنيا، ومتعتي أن أعيش هذا الجبل وما فيه. صرخت أختي أن أتعجل، وآتي بالحطب. قطعت عليّ خلوتي، لكني سأعود إليه.

وجدت نفسي محط اهتمام كل الفتيات، بما في ذلك أختي.

- أنت اليوم العريس. قالت أحداهن.
- ومن تكون العروس؟ سألت أخرى.
- نحن كلنا.
- بأينا يبدأ؟
- هذا خياره، أتمنى لو أكون أنا.
- نعم نحن أربع، يستطيع أن يتزوجنا جميعاً.
- هل يستطيع؟
- لنجرب. أليس برجل بين صبايا.

خجلت، ولم أجب بشيء. تطلعت نحو أختي، وغمزتني مبتسمة، موحية إنها مجرد لعبة. لم أحرك ساكناً. قالت: حضّر نفسك، سنستحم بعد أن ننتهي من غسيل الملابس. غبت مرة أخرى ملتمساً جمع مزيد من الحطب، وابتعدت أكثر نحو "باطن الحية". جلست أرضاً بين أشجار الزيتون المحيطة، وتنقلت بنظري من مكان إلى آخر في حبلاته وأشجاره. هذا المكان لا تهمه الجبال العالية، ولا عيون الماء من حوله، ولا بساتين الفواكه، ولا أنس ولا جان، يقف بكبرياء، ويناديني، وأنا أناديه. من يأتي للآخر، أنا الحي، وهو الحي أيضاً. سأصله. في كل مرة أراه، أراه من جديد، وأتيقن أنه باب المعرفة، وآخر الدنيا.

أصوات الصبايا، تنادي أن أعود. أحضرت معي بعض الحطب، ووجدت أنهن بدأن بنشر الملابس على أشجار العليق والزيتون القريبة.

- اجمع مزيداً من الحطب.

غبت مرة أخرى في دهاليز التل. ركزت نظري أكثر وأكثر، حتى بت على يقين من أني أرى كل حجر صغير فيه. ورأيت الملائكة تحوم من حوله، تحميه من الجن ومن الإنس. لا مواشي ترعى هناك، ولا غزلان تتقافز، ولا ضباع تدور، ولا أرانب، ولا قطط برية. كان التل نقياً، كصفحة بيضاء، وكل من وصل إليه يكون طاهراً.

سمعت جلبة بين الغناء والضحك. أيقنت أن الصبايا انتهين من مهمتهن. سمعتهن ينادينني. قفلت راجعاً. كن في الداخل، نادينني أن أعبر، ترددت، تلصصت بعيني، فإذا بهن حواري، عاريات، يلهين بالماء الساخن في بركة الماء. ارتددت إلى الوراء، فإذا بهن يخرجن ويدخلن كما خلقهن ربهن. قلن: سننتظر حتى تجف ملابسنا، وستسلمنا إياها. إنها قرب الباب مباشرة. هل جفت؟ دققت في الملابس، وتخيلتها وهي تغطي هذه الأجساد، أجساد خلقها الله، لنعيش. بت أتخيل كل ما عرفته في هذه الأمور، كل منهن ستعيش زوجاً لرجل أعرفه أو لا أعرفه. وسيستمتعن بأجسادهن وأجسادهم. ناولتهن بعض الماء الساخن، وأنا أزيح بوجهي في جهة أخرى. قالت إحداهن: لا تخجل، هكذا خلقنا ربنا، وخلقك بهيئتك التي تعرفها ونعرفها. متع نظرك إن شئت، وسنمتع نظرنا فيك. لم أصدق أني أسمع هذا الحديث، وسرحت في الخيال مبتعداً بنظري نحو باب المغارة.

جاء دوري. اشترطت أن أكون وحدي، ولا يراني أحد. قلن ستنتظر حتى تجف ملابسك، لن ندخل إلا إذا شعرنا بالعطش. حملت بعض الماء الصافي، لتشرب كل من تود لو عطشت. ودخلت بين أشجار العليق، وألقيت بملابسي خارج المغارة ليتم غسلها.

حاولت أن أقوم بذلك بسرعة، قرمزت، لأفرك رأسي بالصابون، وصببت الماء الفاتر عليه. في ظل هذا الاستعجال والارتباك، أتت يدي على سطل الماء، فاندلق مع الماء البارد، ولم يعد لي مفر من استخدام ماء البركة. أتت أختي بماء آخر. سألت: هل أفرك لك ظهرك؟ أجبتها أن لا. جلستُ القرفصاء وألصقت جسدي بجسدي لأحميه من أية متلصصة. فركت جسدي على عجل، وبدأت بشطفه. قالت إحداهن: لا تتعجل، فملابسك لم تجف بعد. استرخ قدر الإمكان. طلبت أن أغطي جسدي بشيء حتى تجف ملابسي. فإذا بأم صفية تأتي هي وأم عفاف. أتين لملء جرارهما بالماء. طلبت منهن أن ينتظرن. فقالت أم صفية:

- أنا يحق لي أن أراك، فسأزوجك صفية، وقد انكشفت أمامي تماماً. أنت لها، وهي بانتظارك.

شككت في أنها تعرف عن علاقتي بها، شككت بصفية، فلم أقل لأحد أبداً.

تدخلت أم عفاف:

- بل أزوجه ابنتي عفاف.
- لا بل صفية، فهو يصلح لصفية.
- لا، خجله جذّاب، وهو مناسب لعفاف.

طلبت منهما أن تبتعدا. اقتربت أم صفية مني، وقالت: دعني أراك مرة أخرى، أنت فتى لك مستقبل، وكل البنات تتمناك. اقتربت أكثر، ومدت يدها نحوي، حاولت الابتعاد، فتزحلقت، وكدت أقع في بركة الماء، لولا أنها أمسكت بي، وحوطتني. خلعت ملابسها، كشفت جسدها، وقالت: انظر. لم أنظر. أمسكت برأسي، وأدارته نحوها، فأغلقت عيني. أمسكت بيدي، وشدتها نحو جسدها، وأنا أشد في الاتجاه المعاكس. كشفت أم عفاف أيضاً عن أجزاء من جسدها، وقالت: انظر نحوي، جسدي أجمل، وبشرة عفاف مثل بشرتي. لم أنظر، وبت مثل أرجوحة بين أم صفية وأم عفاف.

في هذا الوضع المختل، لم يعد لي حول ولا قوة، إحداهن تشد يدي اليمنى، والأخرى تشد اليسرى. كيف أخرج من هذا المأزق. ناديت أختي. راقبت الوضع عن بعد، وابتسمت. ثم تدخلت: كانت صديقاتي ينوين أن يتزوجنه قبل مجيئكما، ولم ينجحن، فما رأيكما أن يتزوج كلاً من صفية وعفاف معاً؟

- أوافق شرط أن تكون صفية هي الأولى.
- لا، بل عفاف هي الأولى، وصفية الثانية.
- أريد منك جواباً الآن.
- ....
- ماذا تقول؟

لم أقل. أمسكت بي أم صفية، وراحت تداعبني، انحنيت إلى الوراء، فأمسكت أم عفاف بي من الجهة الأخرى. صرخت أن لا. فتحت عيني قليلاً محاولاً الهرب. أين أهرب، خمس صبايا يقفن في الخارج، والملابس لم تجف بعد. أغمضت عيني مرة أخرى بعدما رأيت ما رأيت. فاستسلمت قليلاً، أو اصطنعت ذلك. أمسكت بي أم صفية، وحوطتني، وقبلتني، وقالت: ما أجملك. وتحسست أم عفاف ظهري، وضمتني، وقالت: ما أحسنك. صرخت أن لا، شققت عيني، التفت نحوهما، وأغمضتهما بسرعة. خجلت أشد الخجل، وأنزلقت في الماء. جذبتني الأولى، وفعلت الأخرى مثلها. كانتا تتأوهان، أو هيء لي. استسلمت قليلاً، وأيقنت أن بعض الحرارة انتشرت في جسدي. لا أعرف كم بقيت على هذا الحال، وما الذي جرى. بت لعبة بين أيديهما، حتى سمعت صوتاً ينادي. كان صوت أبي.

لم أخبر أحداً، ولم تخبر أي منهما أحداً، فما حصل ظل سراً بيننا، ولا أدري إن كان جرى ما جرى، أم مجرد تخيلات.

وأنا راجع إلى البيت، لم أتفوه بكلمة، لم أنظر في عين أحد، فقط سألت نفسي، وظللت أدور حوله: يا الله، لم خلقتنا ذكراً وأنثى؟ هل كنا كذلك منذ البدء، أم كنا واحداً، ففلقتنا فلقتين؟ وهل يحن الواحد لنفسه لو كان واحداً؟

توقفت قليلاً، ورأيت سفح الباطن قد كتب عليه: *كنتم واحداً، فصرتم واحداً واحدة، وواحدة واحداً، وما بينهما. بقيت أفكر فيما أقرأه، ولم أفهمه.*

عاهد

في الخيمة الشجرية الفاتحة أبوابها نحو عيون سلمان ناحية الشرق، أسمع صياح شبان، ولا أراهم، يصرخون: هناك، بل هناك. تعلو الأصوات مقتربة: اركضوا أسرع. خرجت من الخيمة لأرى ما يرونه، لم أر بعد شيئاً، لكن أجساد الشبان بانت من بين حقول الزيتون، وعلى أطراف العيون. ربما كان عددهم نحو الأربعين، منهم اللاجئون ومنهم أهالي القرية.

وأنا أركز عينيّ نحو الشرق، كانوا يقتربون مني مسرعين، لا أعرف لماذا يتجهون نحوي. حاولت أن أطرق السمع لزنانة تأتي من فوق، لكن صراخ الصبية كان أقوى.

في لحظة ما، أناخ جهاز لا تتعدي أبعاد طوله ذراع يدي أمام الخيمة، وصوت الآلة يدور. ابتعدت قليلاً. وقفت خلف جذع شجرة صنوبر، وتلصصت ببصري نحوها. هبطت بمظلة زرقاء. هناك علامات "تحذيرية" عليها، وكتب باللغة العربية وبالانجليزية وبلغة أخرى، عرفت أنها العبرية، جمل قصيرة. كانت بالعربية أن هذا جهاز لفحص الطقس الجوي، ما يعني أن الجمل باللغات الأخرى تحمل المعنى نفسه. زال خوفي بعض الشيء، اقتربت قليلاً منه، لكن صوت المحركات أخافني. هبط قلبي قليلاً، فإذا بالصبية يأتون مسرعين سائلين: أين المظلة؟ أشرت إلى الجهاز، تجمع الصبية من حوله، فإذا بعاهد يتجرأ ويمسك به. انفجر الجهاز، وتطايرت أشلاؤه في كل اتجاه. قتل عاهد، وأصيب عديد من الصبية بجراح.

ابتعدنا جميعاً من محيط الجهاز، بعضنا يبكي، وبعضنا الآخر يضمد جراحه، أو يتفقد جسده. جاء رجال من عيون سلمان بعد أن رأوا ما حدث. جمعوا الأشلاء، وحملوها على الحمار، وحملوا بعض الجرحى، وتوجهوا نحو القرية.

كرهت الموت، وتمنيته. كرهته حين رأيت عاهد وقد تمزق، وهتف الشباب أنه شهيد، لكنه مات، ولم تتجمع أشلاؤه. كرهته لأنه مات على سفح "باطن الحية"، ونقلوه ليدفن في البلدة. انتظرت فترة من الزمن ليعود، ويعيش هنا في الباطن، ولم يأت، ولم يكلمني. تمنيت أن يصحو والشباب يهتفون له، وهو يموت، وهو ميت، وهم يحملونه على الخشبة. دققت النظر في النعش، وكنت أتوقع أن يقوم في أية لحظة ليقول إنه حي يرزق، ولم يقم، كان ميتاً. كرهت الموت لأن عاهد لن يرى دير شريف وعيون سلمان مرة أخرى، وتمنيته لأظل حياً، وتفزّ الأفعى من غفوتها، وتقوم لتغويني، وآكل أنا وصفية من أشجار تفاح دير ينون، ونبدأ الحياة من جديد.

قلت في نفسي: ما هذه الجثة التي يحملونها إلا جسد، وحين أرجع إلى الباطن، سأعيش أنا وعاهد. سأنقل له أخبار القرية، وسينقل لي أخبار أهل الجنة. سأتنقل ما بين عالم وعالم، عالم الأحياء، وعالم الأحياء الأحياء. سيحدثني عن الأنبياء والقصور والأنهار والعسل والخمر والحواري، وسأحدثه عن أخبار صفية والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الذي لم يعد آمناً. سآكل في اليوم أكثر من وجبة لأعيش، أما هو فسيعيش ألكل وجبات طيلة الوقت أم لا. سيحدثني عن طعم الخمر، وسأحدثه عن طعم المقاثي، والفريكة. سيحدثني عن الحواري، وسأحدثه عن صفية وعفاف. سأجد في النهاية من يحدثني وأحدثه، وسيحميني من ضباع الوادي. سيكتفي عاهد بما لذ وطاب من الطعام والشراب، وسأكتفي مثله في الجنة بأكل ما لذ وطاب من الأعشاب التي حولي، ولن أمس حيواناً أقتله واقتات عليه، لم أسمع في يوم من الأيام أن الجنة فيها لحوم نأكلها، هناك يكون الناس نباتيين، وسأعوّد نفسي أن أكون نباتياً منذ اليوم.

أصر أهالي القرية، أن ترافقه فرقة سيدي الشيخ، أعلام بصواري عالية يحملها أقوياء طاهرون، وصولجان نحاسي يدق دقاً حزيناً، وطبل كبير أطول مني قليلاً. كان الشيخ يمشي وراء الجنازة مباشرة، والأعلام تلوح، وتجر حامليها نحو اليمين ونحو اليسار. يلتفت الشيخ، ويقول: هدوء. تهدأ الفرقة قليلاً، وتحاول التوجه من جديد نحو الغرب باتجاه الباطن. فهمت من إشاراتها أنها تود أن يدفن هناك، أو غرب غربه. لكن الشيخ يشير أن تتوجه حيثما يريد. وصلنا الجبّانة، هدأت الأعلام، وتوقف الصولجان عن نواحه، والطبل عن دقاته.

لم يلق الشيخ خطبة، لم يتوجه للناس الحاضرين، بل توجه لعاهد مباشرة. حاول تلقينه: إذا جاءك الملكان الموّكلان الطاهران، وسألاك: من هو ربك، وما هو دينك؟ فقل: ربي ربك، وديني دينك، ومت وعشت على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً آخر رسل الله. عجبت لهذا التلقين الذي سمعته مراراً. اعتقدت أن تلقين الشهيد سيكون شيئاً آخر، وأنه هو الذي سيقوم بالتلقين لا نحن، وأن بقاياه ستلتئم، ولم أر غير بقايا جسد، لطخته الدماء، ويتطاير الذباب من حوله. أول مرة أيضاً وأيضاً أسمع "آخر رسل الله"، فكنت أسمع من قبل "محمداً رسول الله"، وتفكرت في حكمة أن يكون آخر الرسل، ولماذا إصرار الشيخ على لفظ هذه العبارة، ولا أعرف كيف توصلت إلى أننا بعده ربما قد بلغنا الحكمة واليقين، وبنينا دور الحكمة، وبتنا نعلم الآخرين الحكمة، وباتت الحكمة مقياساً لرقي الأمم. هكذا قرأت في جريدة، وهكذا أخبرنا المعلم. الله هو مالك هذا الكون، ويرث الإنسان الصالح الأرض، قبل أن يرثها الذي خلقها بمن عليها.

تفرق الحشد، وظللت واقفاً أمام القبر. خاطبت صاحبه عن قرب، ووعدني بأن يظل على اتصال بي، ووعدته بأن أتواصل معه.

لن أرى عاهد بعد اليوم، ولن نتحدث عن طوله وقوة عضلاته، ولا عن مغامراته في صيد العصافير، ولا عن حصوله على المركز الأول في ركض المسافات الطويلة والقصيرة التي تنظمها المدرسة. عاهد مات.

في هذا الجو الربيعي، بين دفء قليل للشمس، وبرودة لطيفة، أكلت من أوراق "الذبح" والخس البري، حتى شبعت، بل وشربت من مكر ماء فوق الصخور، نفخت على وجه الماء لترحل الديدان الصغيرة، وشربت. لم أرتو تماماً، كما أني لم أشعر بالعطش تماماً، وعلى طرف الصخرة أملت رأسي. عرفت بعدها أنني كنت نائماً، صحوت وكانت يدي قد تخدرت، وجرح صغير في وجهي، ربما لم يكن سوى أثر ضغط رأسي على نتوء الصخرة. تلفت حولي فإذا بالأغنام قد صنعت ما يشبه الدائرة، ثغاء خافت حاد ينذرني، فإذا بالضبع يقف بعيداً، اللعاب يسلي حول فمه، أنيابه بارزة، وعيونه جاحظة. نهضت فجأة وأنا أرتعش، حملت حجارة وألقيتها نحوه، هرب متمهلاً، لم يكن في عجلة من أمره، يهرول بضع خطوات، ويعود ليلتفت نحوي. لم يضبعني، ولم يتبول نحوي، آنستني الماعز، وآنستها، حمتني وحميتها، وسرنا مسرعين نحو القرية.

في الطريق، وقف على صخرة عالية كأنه يحرسني. جمدت المواشي، وجمدت معها. لم يبدُ عليه أنه سيهاجمنا، ولم أرغب أنا أيضاً في ذلك. جلس على الصخرة، وكأنه يحاول محادثتي. رغم القشعريرة التي سرت في جسدي، ظللت محدقاً فيه، ظهر لي أنه يقول شيئاً، شعرت بأن شفتيه تتحركان، دققت في قوله: أحضر لك جثة عاهد لتدفنها في باطن الحية، وتقبل أن أعيش هناك مثلي مثلك. هززت رأسي عدة مرات لأتبين ما فهمته، نظرت نحو الغرب، فإذا ببقايا الشمس، تكتب على بقايا الغيوم: *وما الباطن والظاهر إلا لك*. نظرت إليه مرة أخرى متحدياً، فقال: نصفه لي ونصفه لك. هززت رأسي لأتبين ما أسمعه، فأضاف: بعضه لي وبعضه لك. فقرأت بين الغيوم: *ولا تهادن أحداً، كل شيء لك، أو لغيرك*.

وأنا أسير، تحسست جسدي لأتأكد من أن كل شيء مكانه، وتحسست الأغنام، وعددتها لأتأكد أنها هي التي أعرفها. وحتى لا أكون "مضبوعاً"، فأنادي على الضبع باعتباره أبي، ناديت نفسي بنفسي، همست لها همساً، أو أقل من ذلك، ناجيتها، وأحببتها، وأطبقت شفتي، ودارت كثير من الأفكار في رأسي، وبت على شفا القرية، وفعلت الأغنام مثلي.

خلوة

اختليت بنفسي، الأشجار تحيط بي من كل جانب، أشجار الصنوبر والسرو والحور والأكاسيا والكينا. أرى من خلالها كل الكون، ولا يراني أحد. استمتع بكل ما أود، وأطلق العنان لفكري، بل يسبقني، وأنا ألاحقه، أود لو يبطئ قليلاً لأستمتع بما أنا فيه، فإذا به ينقلني إلى متعة أخرى أكثر بهاء وأعظم درجة. أنا أتحول إلى روح، تراقب جسدي، تراه كما تراه، وترى الآخرين، دون أن يشعروا بوجودي، أنا الطبيعة، أنا الشجرة، أنا نسمات الهواء، أطير بأجنحتي وأحط بخفة ورشاقة. أعلو إلى السماء السابعة، وأرجع من جديد كما أشاء. لا يستغرقني ذلك وقتاً، حتى إنني أقوم بكل هذه معاً، ليس هناك زمن، الزمن أنا وأنا الزمن، فليس هناك قبل ولا بعد، تتوقف الحياة، وتبقى الروح، وأنا روح والروح من حولي.

الماء ينساح من كل زاوية، من عيون سلمان، من تحت الصخور وأصول الحبلات، من بين الشقوق، ومن بين الأشجار، كل ما أراه يشبه هذه العيون، فتسيل المياه برقة من كل زاوية في الجبال المحيطة، من الشرق ومن الغرب، من تحتي ومن فوقي، وفي السفوح، وبين السلاسل. أستطيع أن أميز أصواتها، فأعرف أي نبع يدفع هذه المياه أو تلك، كل واحدة منها تغني لحنا، وما أجمل لحن المياه، وتتآلف معاً لتغني لحن الحياة الأبدية، الحياة التي أحياها الآن، وسأظل. ليست هناك نهاية، إنني في قلب الحدث، والحدث ليس له بداية ولا نهاية، وأطوف حولها، وتطوف حولي.

الطيور تغني، والأشجار تغني، والمياه تغني، وأنا أغني، وأصبح جزءاً من الأغنية، ونصبح كلنا أغنية. القطوف دانية، والسماء واسعة، والمجالس راهفة، آكل أنا والطيور، وأشرب أنا والدواب، وأتنفس كما الأشجار، وإن لم أفعل فلا جوع ولا عطش، ولا ضيق تنفس، هي مجرد متعة أمارسها، ويمارس غيري غيرها، وكل يعيش كما يود، فلا غيرة ولا حسد، ولا تلصص، كل شيء بمقدار وأكثر، وما زلنا ننادي الله أكبر.

في هذا التل، ليس لي ظل، لا أراه، ولا يراه غيري، أنا ربما لست كائناً بشرياً، أنا شيء مختلف. فقط حين أترك الجبل أرى ظلي ويراه غيري. أنا جزء من الأشجار، جزء من التل، وجزء من الطيور والحجارة والماء. ماذا يعني ذلك؟ التل ليس له ظل، لا تراه، لا تحسه، بينما الجبال المحيطة تفرد ظلها قربه، قرب أصله، قرب رأس الأفعى، عند الأصل، وتقف هناك. قوانين الظلال لا تنطبق على الطبيعة هناك. الطبيعة ليست هي التي نعرفها، لها قوانينها الخاصة، أعرف ذلك، وأحاول فهمه.

رسالة

القط يلاحقني، خاصة في الصيف، ففيه يتمدد البشر وينتشرون، وفي الشتاء تنكمش الأشياء، وينكمش البشر إلا أنا، الذي يجد ملاذاً على التلال. القط يموء من حولي، يسبقني حيناً ويلحق بي حيناً آخر، أشفق عليه، فأحمله، لكنه يرفض ذلك وأنا ماشي، ويقبله وأنا جالس أو نائم.

على التل، يحوم حولي، ويتسلل بين الأعشاب والشجيرات، يبحث عن أكل ما، أشعر بالخجل لأني لا أملك غذاء أقدمه له. ينكمش بجسده نحو الأرض، يلتصق بها، ويقفز، يهمر بصوته، معلناً أن هذا صيده، أدقق فيه، فإذا به جندب أو سحلية. أشفق على الحشرات التي تقع في الشرك، وأشفق على نفسي لأني أشفق عليها. أليست هذه هي الحياة!

لماذا لا نكون مثل هذه القطط؟ لماذا أرسل الله مئات الأنبياء وبعض الرسل ليرشدنا إلى الخير ولنؤمن به؟ لماذا لم يفعل ذلك أيضاً مع الحيوانات الأخرى مثل القطط؟ ربما أرسل كتبه إليها، ولا نستطيع فهمها؟ فكيف لنا أن نفهم كتبها من خلال سلوكها؟ ربما أرسل أنبياء للكائنات التي نعتقد أنها أكثر تطوراً من غيرها، ربما أرسلها للنمل والنحل. وهل تعتقد هذه أنها أفضل من الكائنات الأخرى؟ لا أعرف، لو عرفت لازداد إيماني، والحمد لله أننا نعتقد أننا الأفضل، بتصريح واضح في كلام الله.

القطط تجد فينا ملاذاً، ومصدراً للطعام والطمأنينة. لماذا لا نجد في غيرنا المصدر نفسه؟ ربما الأرض والسماء هما المصدر. ولهذا نقدرهما، ونقدسهما، ونتفكر فيهما، ونعبد الله خالق هذا الكون.

معبد

في سفح الجبل المقابل، أرى بيتاً قديماً، حجارته مصفرة، له نافذة تطل نحوي. شككت في البداية أن يكون فيه أناس يعيشون، لكن الظواهر لا توضح ذلك، فليس هناك من حركة لأحد، بل يمشي المارون في طريقهم إلى عيون الزرقاء دون التفات إليه. ينغمس البيت داخل الصخر، ولا ترى إلا واجهتين له، واحدة نحو الجنوب، والأخرى قصيرة تتجه غرباً، به باب تعلوه طاقة، وعلى سطحه ما يشبه القبة، فهو مثل كثير من بيوت القرية قبل أن يتسلل الاسمنت إلى بناء البيوت الحديثة.

كل بيوت اللاجئين في القرية تفتح غرباً، على عكس بيوت أهالي البلدة التي تفتح جنوباً، نحو الكعبة ربما، نحو الشمس ربما، أما اللاجئون فلا يهمهم رياح الشتاء الغربية، فهي تحمل رائحة بلدتهم، وتقيهم شر الرياح الشرقية.

حاولت تأجيل زيارته قدر الإمكان، في وقت لا أستطيع مشاهدة أحد يمر في الطريق. حملت عصاي التي صنعتها من شجر الزعرور، شذبتها، وأبقيت طرفها على شكل شعبة، لأزيح بها أفاعي قد أجدها، وأمسكت بالطرف الآخر الأكثر سماكة. لم أكن في عجلة من أمري. مشيت الهوينا وكأن هذه الأرض لي، وأنا صاحبها. كلما ابتعدت قليلاً أنظر نحو كهفي المشجر، فأشعر بالراحة، وأود لو أعود وأمكث هناك طيلة العمر. طيلة العمر! نعم، فالماء والأعشاب وثمار الأشجار تحيط بي من كل جانب، وماذا أريد أكثر من ذلك؟

شعرت برعشة وأنا اجتاز الباب. خشيت أن يكون هناك حيوان مفترس يتربص بي، كانت الغرفة الوحيدة شبه معتمة، أغمضت عيني فترة لأتعود على أركانه. وفعلت ذلك ثانية، وخبطت بالعصا في جوانب الباب الداخلي، وألقيت بعض الحجارة. لم ألاحظ ردة فعل، فولجت. انتبهت إلى أن كهفي مقابل تماماً للبيت، وسألت نفسي: كيف لا أجد أماناً هنا، وأجده هناك؟ خطر ببالي أن أبدل المكان، لكني أيقنت أن الغرف المغلقة ليست مناسبة لي، فأنا جئت لأنفتح على السماء والأرض، لا لأحشر نفسي في كهف جديد تنبعث منه رائحة روث بعض الحيوانات ورطوبته.

وقفت في وسط الغرفة، درت بعيني في أركانه، فإذا أنا في بيت متقن صنعه، مغروسة حجارته في الأرض، جدرانه من طين، وسقفه الصخر، وأرضه مرصوفة بالحجارة، في وسطه موقد، وبقربه ما يشبه خابية الحبوب والطحين، وكان هناك في الجنوب محراب، أو ما يشبهه. قررت أن أصلي. ولكني دون وضوء، قلت في نفسي: الله يقبل ذلك، فما الوضوء إلا طقوس قبل الصلاة، ولا وقت لدي للنزول إلى الوادي والصعود ثانية، توضأت بالهواء، فحين كان الماء توضأوا به، وإلا فالتراب،ُيتوضأ به، والمنطق أن يكون الهواء هو ثالثهما، فالوضوء يرمز إلى النور والضياء، بالماء والتراب والهواء. مسحت يدي بالهواء، ومسحت على جسدي، على كل أنحاء جسدي كما كنت استحم تماماً، واعتبرت نفسي قد تطهرت. صليت بخشوع ركعتين لله تعالى، وأيقنت أن الله تقبلها مني، فطهارة الروح أهم من طهارة الجسد، وكنت طاهراً.

أطلت قراءتي للتحيات والصلاة الإبراهيمية، حتى إنني شعرت بالمتعة وأنا أرددها أكثر من مرة، وساحت دموعي إغراقاً في الخشوع، وإذا بشيخ جليل يلبس الأبيض، ويضع لفة حول رأسه، يطل علي من خلف المحراب، من شق انفتح فجأة، ويقول: هذه لك، وأنت قيم على ذلك. ادع الله، وادع إلى الله. وفعلت.

وأنا أصلي، وأنا خاشع، وأود أن أخشع أكثر أغمض عيني قليلاً، أسبلهما، لا أضغظ جفنيهما، ما بين النائم والصاحي، ببساطة، اتركهما على حاليهما، وأعزل كل ما هو خارجي إلى الخارج، أمحى من ذاكرتي الأهل والأصدقاء والأكل والشراب، والخوف والشدة، والعزة والمذلة، والرايح والجاي، والطالع والنازل. أضع كل هذه خارج دماغي، أنظر من داخلي، أركز على داخلي، أمسك بقلبي ليدق بلطف وبمودة، وأمسك عقلي، وهو يرى كل جسدي من داخله، أراه، وأرى الدماء وهي تتحرك فيه، وأرى حركة الرئتين، وهما يحنوان على صدري من داخلي، وأرى معدتي وقد فرغت من إعداد طعامها، يصبح جسدي أداة طيعة لهذا العقل، عقلي متزن تماماً، ولا يفكر إلا بالله. لماذا أشعر بالندم كثيراً على حدث ما؟ ربما لأصحح نفسي مستقبلاً، لئلا أكرره، لكن إذا كان هناك حدثاً قد حدث، وانتهى، سأحرق ذكريات أليمة، وأترك دخانها يسبح في الهواء، إلى السماء، وسأتعلق بأخرى مفرحة. هذه الطبيعة جزء مني، أو أنا جزء منها، أتجول فيها كما يتجول الدم في أنحاء جسدي، ما أراه هو نفسي، وما أراه أمامي هو ما في نفسي، ما أخشاه هو في داخلي، وحين أشعر بالسلام مع ما حولي، أكون قد عشقت ذاتي، وما ذاتي إلا من الذات الواسعة.

أراه ولا أراه، يحوطني، وأشعر بلذة ذلك، أشعر أني جزء منه، أتماهى معه، أصبح أكثر صدقاً، وأكثر شفافية، وأكثر رقة، لا أعود أنا المحرك والقابض على هذا الجسد. إنه يُحمل في الهواء، يطير، ويحط، ثم يطير، مثل ريشة عز عليها النوم على الأرض، وعز عليها الابتعاد عنها. لم يعد للحياة معنى، فهذه هي الحياة، فاللذة هنا، وتغرورق العينان، وتُغسلان ببعض الدمع، وأحلم لأراه مثل النهر، ليملأ هذا الوادي الذي أمامي، وأسبح فيه، عارياً، مكتملاً، ناجزاً، كما يحب الخالق أن يرانا وقت الحساب. ربما يكون العري ليس مادياً، بل روحياً، فنحن أمامه مثل صفحة لا يغطيها شيء، كل شيء واضح، ولا سبيل لإخفاء ما حدث، وما يحدث. استعرض ما قمت به في حياتي، فأجد أني طاهر، وأجد أن بإمكاني أن أصبح أكثر طهارة. مزيد من الحب، مزيد من العطاء، مزيد من الصدق والعمل، مزيد من التقوى، فإنا لم أقم بالكبائر، وما الصغائر إلا صغائر. أرى حياتي التي وعيت والتي لم أع، وأراها حسنة، وأرى معاملتي مع الأقارب والأصدقاء، فتكون حسنة، والقدوة حسنة، والنية حسنة، وكل شيء حسن، وأود أن أرتاح من هذه الحالة. تنفتح عيناني قليلا، مجرد شق خفيف من الضوء، يتسرب داخلي، فأرى رسماً على الحائط، أغمض عيني، وأفتحهما لأتيقن مما أرى، فيكون هو المنظر نفسه، وأزيد في فتحمها، ثم أغلقهما حتى لا تفوتني حالة الخشوع، فأرى نفسي، وقد وقفت قائما على خط مستقيم يصل مركز دائرة المحراب، ويصعد شيئاً فشيئاً، فإذا به يمر من صورة المسجد الأقصى، وينتهي بالكعبة، حاولت أن أتبين ذلك أكثر، واعتقدت بأن هذا الخط يمر بمركز قمة الباطن. يا الله، ما هذا؟ إذن أنا في المكان المقدس الذي يصل بين أولى القبلتين والحرم المكي. يا الله كم أخشاك، وأستمتع بخشيتك، واستمتع بتوحيدك. هل هي صدفة؟

ارتعش جسدي خشية ورهبة وخشوعاً مما حدث أمامي، أصدقه ولا أفعل. لماذا لا أصدقه؟ فأنا صليت طاهراً، في المكان الطاهر، وخشعت لله تعالى كما لم أفعل من قبل، وأنا لم أبلغ الحلم بعد، ولم أكن أعرف ما هو الحلم أصلا، والله يرعاني. اقتربت من المحراب أكثر، ومن الكوة الغربية نظرت، فإذا بالغيوم فوق الباطن، وقد كتبت بخط واضح: والباطن وما كوّنه، والوادي ما أجمله، والماء وما سيّله، سيجعل منك عبداً ما أبدعه، بحق الله وسمائه، وأرضه وبنانه، فأطعه واجعل القلب سنانه.

خشعت مرة أخرى، وسجدت حمداً لله، وقمت نحو الشرخ الذي خرج منه الشيخ، فإذا بعالم آخر، غير الآخر الآخر الذي يحدثنا عنه الشيخ، فالشق يفتح على جدارين متوازيين واقفين ببهاء، يفصل بينهما حوالي المتر، وكأنه مخبأ سري، فلا الخارج يراه، ولا الداخل يحس به. قررت أن أدخل، ولا أخشى ما خشيته سابقا، فالله معي، والشيخ باركني قبل قليل، وحماني. دخلت فإذا برسومات على الحائط الجنوبي من الممر، رسومات لغزلان، وضباع، وقطط، وكلب وإنسان يحمل كتاباً يقرأ فيه أو هكذا تخيلت. أما الحائط الشمالي من الممر، فيحتوي على قصة ترتفع عن الأرض حوالي نصف المتر، وتحمل أدوات حجرية تشبه السكاكين، والسهام، والسيوف. وهناك بعض التماثيل لبشر، منها يمثل علاقة حميمة بين رجل وامرأة. يا الله! هذا يحدث قبل آلاف السنين، لهذا نحن نعيش على هذه الأرض.

توقفت فجأة خائفاً، حين اصطدمت يداي بجماجم بشر، وبعض العظام، وانفتحت حجرة على قبر، فإذا به يحتوي على عظام كلب. خرجت مسرعاً من الشق، فإذا به يغلق ثانية، فخرجت من البيت في الفضاء، فإذا بمجموعة سائحين تسألني إن كنت قد رأيت قبوراً في هذه الناحية. كذبت، فأجبتهم أن لا، تجولوا قليلاً في المكان، وعادوا نحو الغرب على سفح الجبل وفي الوادي، وهم يتفحصون خارطة يحملونها.

حرارة

كان الوقت صيفاً، والحرارة شديدة، ألواح الزينكو التي تغطي السقائف تتحول مثل صاج "النور"، وهم يصنعون مغارف الألمنيوم. النوافذ، بل طاقات السقائف لا تسمح بمرور الهواء براحته، تمنعه، ويأتي الهواء القريب من الأرض أكثر حرارة، وربما يقف هناك، ولا يستطيع الدخول. من الطبيعي أن يهرب الناس منها، إذ تتحول إلى ما يشبه الطوابين، ويلطون تحت الأشجار، يستظلون بفيئها. أبي كان يفعل ذلك، يأخذ حصيرة وطراحة، يعزّل بعض الحصى، وينام. كنت أسمع شخيره وأنا في البيت. الحرارة تحاصر الناس في البيوت وتحت الأشجار، بحيث يصعب أن أرى أياً منهم يسير في الطرقات.

وجدت نفسي وقد وصلت عين أبو شرعة، كنت أنتقل من فيء شجرة إلى آخر، وكأنني أراقب الحرارة علها تبتعد، أركض ركضاً، وأستريح، بالضبط كما كنا نفعل تحت الأمطار. حين اقتربت، شعرت بالنسيم يزيح الحرارة جزءاً جزءاً، خاصة وهو يواجه الجهة الشمالية، يكنسها كنساً، فتأتي بقاياها من جديد، ويظل يزيحها. عجبت لأمر هذا الهواء الذي يحمل الحرارة بعيداً، ويبقى جسدي منتعشاً، وددت لو أخلع ثيابي، فخلعت، وودت أن أمشي عارياً بين أشجار الزيتون، ومشيت، وودت أن أدخل دغل عين أبو شرعة، فدخلت، وودت أن استحم بالماء، فاستحممت، وودت أن أغني بأعلى صوتي، فغنيت: على بير الصفا وردت حليمة، ضفاير سود شقلتهم حليمة، رحن يا بيظ ما انتن غنيمة، وتعالن يا سمر يا عز الأحباب.

شعرت بأن باب مغارة العين قل ضوءه، والوقت ظهراً. توقفت فجأة عن الغناء، والتفت شمالاً نحو الباب الذي تطوقه أشجار العليق، فإذا بإمرأة تصغر أمي قليلاً، وتقول: أنا حليمة. قرمزت علني أخبئ عورتي، وطوقت يدي حول ركبتي. قالت: لا تستح، فأنت مثل ابني، أنت بعمر ابنتي، سأزوجها لك. شعرت بالخجل، ولم أجب. قالت: دعني أساعدك بالاستحمام. رجوتها أن لا تفعل، ولم تستجب، بل أصرت، ولم أجد بداً من أن استجيب لها، فلا صيحاتي كافية لنجدتي، ولا دموعي تسترني. قالت لي: سأنظف جسدك كما ينظف العريس جسده ليلة دخلته. كانت تحمل صابوناً بلدياً، وبدأت بفرك رأسي، وصب الماء عليه، ثم صنعت ما يشبه الليفة من قطعة قماش تضعها تحت مئزرها، وبدأت بفرك جسدي. انكمشت وانكمش كل عضو مني. زاغ نظري، فلم أعد أميز شيئاً أمامي أو خلفي. بت غير قادر على تمييز أعضائي، اختلطت علي الأمور أيما اختلاط. بت لا أعرف أين أنا، ولا أعرف من أكون. شعرت بماء دافئ يُسكب على جسدي، يبلله من كل جهة، أرتعش قليلاً، أهز رأسي علني أصحو، ولا أدري إن كنت قد فعلت. سمعت صوتاً من ركن في المغارة يقول: لا تخجل. كن رجلاً. لا أدري إن استجبت، ولا أدري متى سأصبح رجلاً. لماذا يجب علي ذلك؟

هززت رأسي عدة مرات، لأتبين ما حدث، فليس الآن أمامي لا حليمة ولا غيرها. شككت أن أكون نمت فحلمت، لكن هذا لم يحدث. شككت أن تكون الجنية لبستني، وتزوجتني، وفعلت ما تريده، وربما سأصبح أباً لخلق ما بين الإنس والجن، ما بين التراب والنار. ارتبكت قليلا، جلست أمام بوابة العين، وقلت لنفسي: لن أخبر أحداً، وماذا لو لبسني الجن؟ وماذا لو تزوجتني؟ وماذا لو أصبحت أباً لأولادها؟ الجنية لا تتدخل في شؤوني، وربما تساعدني في حياتي، هي ستستمع بي، وأنا كذلك، تعيش معي في النهار أو الليل لا فرق، وماذا لو أصبح الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ وماذا لو كنت مختلفاً عن باقي أهل القرية؟ وماذا لو عشت حياتي

كما أود؟ ومن قال إن حياتهم ستكون أكثر يسراً ومتعة من حياتي؟ نحن البشر من خلق الله، والجن كذلك، وأنا جزء من هذا الكون. حتى إني شعرت بأني سأحدد أوقاتاً آتي فيها هنا، وأعيش مع الجن. بل أينما كنت، حتى لو في حضن أمي ستأتيني، وسألبسها وتلبسني.

القط

مات القط، بلا سبب محدد، ربما قرصه "أبو قرع"، هذا أخشاه أيضاً، يشبه الحرذون الكبير، أصفر اللون، ولا أعرف كيف يقرص، بأسنانه؟ ربما. وربما قرصته عقرب. وربما أفعى.

صليت عليه، ودفنته، ولقنته كما يفعل الشيوخ عادة. ووضعت على قبره شاهدين، واحد طويل عند رأسه، وآخر أقصر منه عند قدميه. ابتعدت عن القبر قليلاً، ورحت أتأمل في الحياة، حياتي وحياة الحيوانات الأخرى، فإذا بأفعى تدور حوله، تخلع ثوبها، ذلك الذي كنا نتبارك به، نفركه، ونغسل به وجوهنا، وأيدينا، فهو يعطينا الحياة والنضارة. نبشت الأفعى القبر، وأخرجت القط، والتهمته، طال ذلك، تمددت على ظهرها، وماتت.

أفزعني المنظر، وأفزعني بطنها المنتفخ، وفزعت من كل شيء. دققت النظر في بطنها، فإذا به مختلف اللون، إنه فاتح، أقرب إلى البياض، أكثر شفافية، مثل الزجاج، وكأني على وشك أن أرى ما في داخلها، وأن أرى القط الأليف. كان ذنبها يتحرك، تحرك في البداية بسرعة، وهدأ قليلاً قليلاً. اقتربت منه، وأمسكت به، ودوّرت جسدها ليشبه باطن الحية، كومته، رأسها في الأسفل، ورأس الكومة مثل رأس التل. ابتعدت قليلاً، ورأيت صورتي في سفح جسدها، بالضبط كما أنا في التل، وصرت أبحث عن الحياة وصورها، فرأيت المعبد، ورأيت أناساً يعتكفون ويصلون، ويوحدون الله.

شعرت بأن هناك سرباً من الحمام يغطيني، كله حمام أبيض، يقترب مني بالضبط، يكوّن ما يشبه الغيمة، يمكث بضع دقائق، قلبي يخفق فرحاً وانبهاراً، يحوطني، ويطمئنني بصوته الحنون، ثم ينطلق نحو عيون الماء، ويبتعد نحو مباني القرية.

مسعود

لاحظ مسعود أنني أقضي وقتاً بعد الظهر في كرم التين، أحمل كتبي، وأذهب هناك. أحرس الكرم، وألعب، وأقرأ، وأقطف ما لزم من التين، وأناجي الطيور، وبعض الحيوانات الأليفة. كل منا يعرف حدوده، وحدود كرمه، فلا يتعداه أحد إلا بإذن، حتى لو كنت فتى صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى. إن من يخطو خطوة داخل الحدود يعتبر تعدياً، ويمكن أن تقوم الدنيا ولا تقعد.

مسعود يتقرب مني منذ مدة وأنا ذاهب إلى المدرسة ثم وأنا غاد منها. حدثني عن أبيه وأمه، وعن إخوانه، ماذا يأكلون، وماذا يشربون، وكيف ينامون، ويسرحون، ويمرحون، ويغضبون، ويحزنون. أشعرني بأنه ينفتح عليّ في كل حالة، يود مصادقتي، وأنا كنت حذراً منذ البداية. لم أبادله الحديث كما فعل، ظللت متيقظاً، لا أعرف لماذا. فرغم معرفتي الطويلة به، لكن تقربه مني هذه المرة لا يأتي بمقدمات، جاء هكذا.

في يوم قائظ، الحر ليس كمثله حر، كنا نركض عائدين نحو البيت، نرتاح قليلاً تحت شجرة، ثم نركض ثانية. قلت: سأرتاح في كرم التين، قال: سأرتاح معك. لم أرد إيجاباً أو سلباً.

كانت شجرة التين الكبيرة تفرد أجنحتها داخل الكرم، وعلى الشارع. كانت تينة "بياضية"، شهية في آخر الموسم، وفي وسطه. كنت أحب التين السماري، فهو التين البلدي بالنسبة لي. لم يكن سهلاً الجلوس تحتها، فهي تغطي الأرض، تنام عليها، وتطلق أغصانها في كل جانب، ولا تترك مجالاً سوى بالجلوس داخلها، بين فروعها، وهي ليست كثة، فلا تستر أحداً ولا تمنع الشمس، ولا تغطي ظلالها كامل المساحة تحتها.

حاولت أن أذهب لأرتاح قليلاً تحت ظل شجرة زيتون، صغيرة الحجم، فإذا بمسعود، يدلني على شجرة الخروب. كانت تشبه الأشجار الحرجية، تعلوها سلسلة حجرية، وتفرش جناحيها، تشبه الخيمة. كنت أخشاها، وأخشى الجن الذي يعيش هناك. وهي شجرة ذكر لا تجني منها ثمراً.

أقترب مني مسعود، وقال: ما رأيك أن تتزوجني؟

ماذا يقول هذا الولد؟ ماذا يقصد؟ كيف أتزوجه؟ أأتزوج ذكراً مثلي؟ أنا أعتبر نفسي متزوج روحياً من صفية. إذن يريد أن يدخلني في لعبة. أجبته: لا.

- لماذا؟
- أنا سأتزوج صفية.
- وأنا.
- صفية هي حياتي.
- لا عيب في ذلك. هذا حدث لي كثيراً.

أجبته بشكل قاطع: لا. ورأيت أمامي صفية بكامل صفائها ونقائها وعهدها.

ولم يعد مهماً أن أستريح قبل الوصول إلى البيت، لتفعل الشمس فعلها، لأحتمل حرها بضع دقائق، على أن أحتمل مثل حديث مسعود.

سعدات

سعدات، هو نفسه، يرعى الأغنام كما يفعل معظم شباب القرية، يعود بعد المدرسة ليلحق بأبيه، ويتسلم المهمة منه. سعدات ليس مهتماً لا بمدرسة، ولا بعلم. سمعته مرة بعد أن حصل على علامة متدنية جداً في الامتحان، يقول: الحمد لله، أليس ذلك أفضل من أن لا أحصل على علامات مطلقاً، يعني هناك بعض العلم، وأنا لا أريد أكثر، لا يلزمني كثير من القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والعلوم.

هو نفسه الذي يتأخر عن المدرسة دائماً. وحتى يفلت من العقاب البدني، يحلف أغلظ الإيمان أن أخته أو جدته ماتت، الأستاذ يصدقه أحياناً، ويريدنا شهوداً أحياناً أخرى، ويكون كلامه صحيحاً، فجدته ماتت منذ زمن طويل، وكذلك أخته التي لم تتجاوز بضعة شهور، والأستاذ لا يدقق في تاريخ وفاتهما.

سعدات دائماً يشعر بالسعادة، فليس أمامه ولا وراءه كما يقال. مدرسة بالحد الأدنى، ورعاية الأغنام حتى يجف النهار، وصيد عصافير، أما ألعابه فباتت مكشوفة لكل من يعرفه، ألعابه مع البشر والمواشي، مع أمثاله من الصبيان، ومع مسعود.

سعدات يرعى أغنامه في الشرق وفي الغرب، وبالقرب من عين الشيخ، والشيخ يؤم في الناس يوم الجمعة، والشيخ تأتيه النساء ويأتيه الرجال، لكتابة رقية أو حجاب، هو نفسه الشيخ الذي يحاول إخراج الجن من جسد زوجته، ولم يفلح، وهو نفسه الشيخ، الذي يأتي سعدات ابنته التي هي على وشك البلوغ، على بعد أمتار منه، وراء سلسلة، أو تحت أكمة، أو فوق شجرة. شاهدت ذلك غير مصدق، وغير مصدق أفعالها وأفعاله، وغير مصدق كيف يقود هذا الشيخ قرية بأكملها روحياً، ويتصل بالعالم الآخر، ويتصلون به.

ظلال

كان الجو حاراً، والناس تبحث عن أي ظل، ظل شجرة، ظل بيت، ظل سقيفة. جلست تحت الشجرة التي أحب. شجرتي، فإذا بفتاتين تخرجان من بيت مقابل لي تماماً، ببعد مئات الأمتار. راقبتهما أكثر. فإذا بصفية تأتيني. أشرت بيدي نحو الفتاتين. جلسنا أرضاً وبتنا نراقب ما يحدث.

الفتاتان، تخلعان ثيابهما تماماً، تظنان أن لا أحد يراهما، وتلتصقان، وتتموجان. راقبنا الأمر مرة، فإذا بهما تدخلان البيت وتعودان، وهكذا طال الأمر. لم نتبادل الحديث أنا وصفية، فقط نراقب ما يحدث، ولا نعرف إن كنا مستمتعين بهذا الحدث أو مستقرفين.

- ما الذي يحدث يا صفية؟
- تتزاوجان.
- فتاة وفتاة؟
- فتاة وفتاة.
- كيف؟
- ألم تسمع بزواج بين فتى وفتى؟
- نعم.
- وما نراه فتاة وفتاة.
- لكن ..
- هذا يحدث.
- كيف؟
- كما ترى، وأرى.
- وأنت؟
- لا. أنا زوجك أنت وحدك. هذا عهدنا

ساد صمت، ولم أقو على النظر إلى عيني صفية، وظل الأمر محيراً لي. نظرت نحو السماء لأقرأ شيئاً، لكن السماء كانت صافية، والغيوم قد رحلت.

الخشب

دقات الخشب، ضرباته التي كنت أسمعها ليلاً، صرت أسمعها ليلاً نهاراً، وبات يسمعها غيري، ولم تعد سراً أخشى أن أبوح به، صار جزءاً من حكايا الناس في الحارات والمقاهي والمجالس، ومنها مجلس أبي، وبدل تركيزهم على الأخبار السياسية العامة، صار التركيز على قطع الأشجار، ومدى الاستفادة منها، أو الانزعاج من تلويث الطبيعة.

انقسم الناس إلى قسمين، قسم يرى ضرورة الحفاظ على الطبيعة كما هي دون تدخل، والانسجام معها، حتى لو تم التدخل سابقاً، فالطبيعة تعيد إنتاج نفسها، تقبل ما تشاء، وتلفظ ما تشاء. إنها الطبيعة، كما تقبلنا أن نعيش فوق سطحها أو تحته، وبالتالي فإن قطع الأشجار هو تدخل، سترفضه الطبيعة أيضاً. تقولوا في ذلك كثيراً وفلسفوه، بالضبط كما الدواء الذي يتناوله المريض، فهناك أجسام تقبله، وأجساد ترفضه، لذلك اعتبروا أن أصوات قطع الأشجار بالشرخات وبغيرها هو ضجيج بيئي، مثله مثل الضرب على الدماغ، وما الله بغافل عن عباده، وهو الذي سيعيد الأرض إلى طبيعتها، وما هي إلا وديعة يجب إرجاعها كما كانت، وإلا ماتت واندثرت.

أما القسم الثاني، فاعتبر الضربات هذه مثل الموسيقى، مثل قرع الطبول، فالأشجار هذه زرعها الإنجليز منذ مجيئهم إلى البلاد، وخربت البلاد على أصحابها. إنهم يغيرون الأرض، ليتركوا أثرهم فيها في نواح كثيرة، منها الأشجار الحرجية التي لم يسبق أن كانت فلسطين مشهورة بها، فهي ليست أرزاً أو فاكهة أو كروماً. إنها تقتل الأرض وما تحت أجنحتها، تفتت الصخر، وتؤوي الوحوش والأفاعي الطائرة، إنها أشجار الموت. يجب خلعها كما يجب خلع كل أثر لاحتلال، وهم يرفضون استخدام كلمة قطع. وما هذه الضربات التي نسمعها إلا محاولة لإعادة الطبيعة إلى ذاتها، ورغم ما فيها من منافع ومفاسد، فإن منافع خلعها أكثر من مساوئها. أليس هذا بقول من الله جل وعلا؟

انكشف الأمر عليّ، وانكشف على الناس، إنها مثل انجلاء السماء وما فيها على الشيوخ، مثل الشيخ عبده، الذي يرى الجن ويطارده في عقر داره، ومثل الشيخ جبرين في الجهة الغربية من القرية، والنبي غيث، والنبي عنير، والنبي أيوب، والنبي روبين وغيرهم ممن مروا من المنطقة وما حولها.

المشاحر

صيف قائظ آخر. أهالي بيت اللو لا تتسع لهم بيوتهم، فالحرارة لا تطاق، ينقلون بعض أمتعتهم في النهار، ويعيشون تحت الأشجار، أشجار الزيتون بالذات. كل عائلة تحوّط على زيتونة وارفة أو أكثر، يسورونها بأعمدة خشبية، وببعض الشراشف لتستر عليهم. يسوون من التراب حولها، ويفرشون الحصر، ويقضون معظم النهار هناك، أو يعتبرون بيوتهم وسقائفهم مجرد مخازن للمؤونة، ويقضون حوائجهم في الخلاء. وفي الليل، فإن ضوء القمر أحياناً يكفي. وفي الليالي المظلمة كانت مصابيح الكيروسين مصدراً آخر.

النهار لا يطاق، والليل لا يطاق أيضاً. تحولت البيوت والخرابات القديمة مآوي للأفاعي والعقارب والعناكب، وافترش الناس الأرض والتحفوا السماء. ازداد السعال الذي أصاب كل الناس. الدخان يكاد يعمي العيون، والأنوف تجمع الأوساخ وتسدها. المشاحر في الجهة الغربية من القرية، تخنق الناس وساكني القرية.

مجموعة لا أعرف من أين أتت، تبني من سيقان أشجار باطن الحية وفروعها وأغصانها معامل لصناعة الفحم، وبيعه. قالوا إنهم يحصلون على المال دون أن يضطروا للسفر مسافات طويلة أو الخروج من القرية. يقصّون الأشجار ويرتبون خشبها بما يشبه القبة، ويشعلون فيها النار، لتستوي بهدوء. يستغرق ذلك ما يزيد على الأسبوع، ويهب الدخان نحو المباني، فيسوّدها، ويجعل من التنفس أمراً صعباً. اعتاد الناس على دخان الطوابين، لكن فترته قصيرة، ويبعد بعض الحشرات من لسع أجسادنا ليلاً. أما ما يحدث اليوم فالأمر يختلف.

أطل على القرى المجاورة فأجدها مغطاة بالدخان الأسود والرمادي. الحياة تصبح أكثر صعوبة. أصبحت المشاحر تجارة رائجة، وغطت البلدات غيوم سوداء، شبه ثابتة، لا ماء فيها. السعال صار أمراً طبيعياً، وليس علامة مريض ليتناول بعض الأدوية أو يراجع طبيباً. السعال حالة مرافقة للتنفس والتحادث، حتى أن إمام القرية في خطبة الجمعة يسعل بين الجملة وأختها، ويتحول المسجد إلى حلقة سعال لا تنتهي. إنه مثل الفواصل وعلامات الترقيم في النصوص الأدبية منها والدينية. شيعت القرية بعض كبار السن، وبعض الأطفال، وكان تشخيصهم أنهم يعيشون أزمة، ولم أفرق بين الأزمة التنفسية، والأزمة المشاحرية.

شجرة الزيتون

اخترت أنا وصفية شجرة بعيدة إلى حد ما، لنجعلها بيتنا في المستقبل. اعتبرت هذه الشجرة عظيمة، فهي باسقة الطول، غزيرة الإنتاج، تقف صامتة كتومة، فليس من السهل أن تتحرك أغصانها مع النسيم، حكيمة لا رعناء، بهية المنظر والسلوك، إنها قديمة جداً جداً، وتكتفي بالقليل من الغذاء، هكذا اعتقدت وما زلت.

لم يخترها الأقارب ولا الجيران، ووقع اختيارنا عليها، بمنطق كل الذين يعرفون المنطقة، فهي ترتبط بساق عجيب، مغلق من ناحية الشرق، على شكل نصف دائرة، بحيث تظهر عظيمة من هذه الناحية، لتمتد حوالي المتر، لكن هذا الساق فارغ من الغرب، يفتح عليه، ويشكل ما يشبه البيت داخله بارتفاع أكبر من طولي. قضينا أياماً ونحن نزيل الحجارة الصغيرة والكبيرة، وبعض روث الحيوانات، فأصبح بالإمكان الاستلقاء، والنوم إن شئنا. لا تراه الشمس وهي مشرقة، ولا يراه أهالي القرية. هي بيت صغير يكفينا. أحضرنا بعض الحجارة الكبيرة نسبياً وسورناها من الغرب، وغطينا أطرافها ببعض أغصان الزيتون غير المثمر، فأصبح بيتاً له امتداد داخلي، وله باب. جمعنا بعض العلب الفارغة وزيّنا البيت بها وببعض الكرتون كأنها رفوف، وصرنا نستمتع بالاستلقاء، وبقضاء وقت الظهيرة، وقبله وبعده. ما أجمل أن يكون لك بيت، فالبيت ليس للمبيت فقط، هو حماية، هو شعور بالتملك، شعور بالتوحد مع الطبيعة، شجرها، وترابها وحجارتها، وسمائها.

فجأة، إذا بسعدات يظهر، وينادي علينا، ويسألنا ماذا نفعل. لم ينتظر إجابة، بل أكمل: تقضيان هذا الوقت هنا، وهناك فرقة سيرك جاءت إلى القرية، تقدم عروضاً في السوق! انظرا إلى البيوت، لم يبق فيها أحد، كل الناس ذهبوا هناك.

- ولماذا أنت هنا؟
- سألحق بكما، أريد التأكد أن كل أهالي القرية يعلمون بذلك.

ركضنا فرحين، آملين أن نعود إلى بيتنا الصغير الآمن. وصلنا السوق، فلم نجد لا أهالي القرية، ولا السيرك، ولا أي شيء آخر. عدنا متعبين، ممنين أنفسنا بأن نرتاح في البيت الذي صنعناه، ورعيناه. حين وصلنا عرفنا أن سعدات تخلص من قاذوراته في بيتنا، وأصبح مكاناً لا يطاق.

الطوفان

حالة هيجان في القرية وحولها، أصوات وصراخ، ومحاولة رحيل جديد. الناس يلبسون ما خف من الثياب، ويحملون ما زاد ثمنه وسهل حمله. فوضى. صراخ. عويل. اقترب يوم القيامة، غيوم سوداء، غابت الشمس، العتمة تسود، والأنفاس تحتبس، ويفر المرء من أخيه، وصاحبته وبنيه، الطرقات تعج بالناس، ولا يعرفون بأي اتجاه يسيرون. الأغنام ُتبح أصواتها، والحمير لا تستطيع النهيق، والدجاج يفر نحو لا مكان.

وجدت نفسي أسير غرباً، باتجاه الباطن، مثل المجنون الذي يدور في البطنان، فليكن. لا أعرف كيف وصلت عيون سلمان، ولا أكاد أرى شيئاً أبعد من عدة أمتار. الوقت عصراً، وصوت أذان يأتيني من قرية جمالة. اقتربت من النبع، فإذا بالصخر قد انشق، وزادت مياهه. أقف غير مصدق لما يحدث، ونحن الذين كنا ننتظر وقتاً لملء البراميل. أقف على صخرة مقابلة. صخور أخرى تنهار وتتدفق المياه بكل قوة. أمواج تتشكل، مياه صافية تندفع غرباً، وصوتها يهز كل ما حوله، ويزيح مزيداً من الصخر. أتطلع إلى جهة القبلة، فإذا بعيون أبو شرعة تدفع مزيداً من المياه نحو الوادي، تغطي وادي الطواحين، وتلتقي بوادي الزرقاء، تغطي ينابيع الأودية، ويعلو منسوب المياه. لم يعد الوادي وادياً، ولا الحقول، ولا الأشجار، كلها غطيت بالماء.

ما يهمني هو الباطن، باطن الحية. هل يمكن الوصول إليه؟ الرؤية غير واضحة، تجولت على سفح الجبل المقابل، لأجد طريقي. دققت النظر، فإذا به جبل أقرع، ليس فيه شجرة، كلها تم قصها، ولم يعد به أي جمال أعرفه. كان شيئاً آخر. اقترب منسوب المياه من قمته، وهو يصارع الحياة، يحاول أن لا يغرق. انطفأت المشاحر. وطفت الأخشاب فوق سطح الماء. كانت أخشاباً كثيرة، أكثر مما تعد أو تقدر، بعضها قصير، وبعضها بطول الأشجار التي أعرفها. اقتربت الأخشاب مني، يدفعها الماء نحوي، ولم أجد بداً من اعتلاء ساقي شجرتين متلاصقتين. كانتا أشبه بالقارب. ركبت وشعرت بأمان ما. لم يعد يهمني إن ارتفع السطح أعلى، التفت حولي فإذا بكثيرين يفعلون مثلي، وكثير من المواشي والدواب تسبح، والمياه تتجه بنا غرباً.

صرت أرجوحة بيد الماء، نحو الغرب، نظرت أسفل مني، فإذا بالماء يزداد صفاء، وقمة الجبل أكثر بهاء. هناك جلست، وهناك لعبت، وهناك نمت، وقمت وطاردت الضباع وطاردتني. هناك التقيت بصفية. أين هي صفية؟ صرخت: أين أنت يا صفية؟ وشعرت بأن كل الناس تنادي صفية هي الأخرى، كانت معي، كانت قربي، لم أحس بها مادياً. كانت معي روحياً، وكنت معها. كانت تجلس فوق مركبي، وتقول: أنا أحبك. وقلت مثلها.

لا أدري إن كنت غفوت قليلاً، لأصحو وأجد كل أقاربي حولي، والجيران، ووالدي، بما في ذلك الذين ماتوا منذ سنين، وعاهد. نظرت نحوه. ناداني وناديته، ورأيت الصبية التي ماتت قبل سنين حرقاً. كنا مستسلمين لواقع جديد. لا ضوضاء. سكون، أو ما يشبهه، أو ما يشبه قبل الخلق.

تنهار قبور قرب المعبد، أو بقاياه، تبرز العظام، يسحبها الماء، تقترب مني بعض الرفات، بعض العظام التي ما زالت متماسكة، أدقق في الأيادي وهي معتصمة، اليد اليمنى فوق اليسرى، والسبابة توحد الله، وبقايا الجسد تميل على الكتف اليمين باتجاه الجنوب.

غمزني والدي، وقال: نحن على حدود بلدتنا، هذه هي العديسية، ورأس الأقرع، والسحبات، والخربة الشامية، ومرج الباطن، والنقارة، والنوادر الشامية، وهذه هي البلدة، بل بقاياها، هناك كانت أحواشها، وبيوتها. هناك كان بيتنا. هناك كنا، وهناك صرنا. أترى؟ أترى؟ إننا فوقها الآن تماماً. لو يتوقف هذا الطوفان، وننزل لنسكن فيها، ونلعب هناك، ونبني، ونعيش من جديد.

تمنيت أن يتوقف الطوفان، ولم يتوقف بعد.